بين الجزيرة والثورة

سنوات اليأس .. ورياح التغيير

علي الظفيري



بين الجزيرة والثورة

بين الجزيرة والثورة

سنوات اليأس.. ورياح التغيير

بين الجزيرة والثورة

سنوات اليأس.. ورياح التغيير

بقلـــم

علي الظفيري

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
الظفيري، علي
بين الجزيرة والثورة: سنوات اليأس.. ورياح التغيير/علي الظفيري.
٢٢٤ ص.
ISBN 978-9953-533-81-0
١ . البلدان العربية ـ الأحوال السياسة. ٢. الثورات ـ البلدان العربية. أ. العنوان.
320

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٢

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيـروت ـ لبـنـان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١) ـ ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com

الإهــــداء

إلى جسر من الأرواح الطاهرة لا ينقطع ..

أخي وصديقي مظهور بن عبدالله ..

ما اقتطعته من عمرك ومنحتنا إياه، ما زال يعبر بنا ، من أمانٍ لـ أمانْ

زوجتي وحبيبتي ووطني ..

كان الانتماء لـ ترابكِ ، فعلاً كاملاً وصحيحاً ، وشافيا كما يجب

إلى الجزيرة ، والثوار ، والأصدقاء

أهدي هذا الكتاب ..

المحتويات

مقدمة

في الخامس والعشرين من إبريل/ نيسان عام ٢٠٠٤م، التحقت بالعمل في قناة الجزيرة، وسكنت أول مرة في فندق موفنبيك قبالة كورنيش الدوحة الجميل والهادئ، ثم أفرغت شنطتي وعلقت بعض الملابس القليلة التي أحضرتها معي، ثمة ما يدفع للشعور بأن كل ما يجري طارئ ومؤقت، وربما سأستقل الرحلة القادمة إلى الرياض، لم أتصور لحظة أني سأبقى طويلاً هنا، ولا علاقة لهذا بما وجدته أمامي، بل بمجمل الظروف التي أحاطت عملية انتقالي للجزيرة، بدا واضحاً تصوير البعض للأمر على أنه خيانة كبرى، فيما يلقي الأصدقاء والناصحون محاذير حول الخطوة وينظرون لها كمغامرة غير محسوبة، ومخاطرة لا تؤمن عواقبها، هناك أوهام ومغالطات كبيرة في عالمنا العربي حول فكرة المواطنة والانتماء وخلطها بالتبعية والعبودية للأنظمة، يتراجع حق الفرد الكامل بأرضه ووطنه وحريته المطلقة بالحركة والتنقل والعمل والتعبير، كما أن مفهوم الدولة العصرية لم يتحرر بعد من أشكال القبيلة وسطوة الأعراف وهيمنة العاطفة على جمهور المنتمين، تغيب فكرة الحقوق المتساوية أمام وجوب الانتماء الأعمى الذي لا يضع اعتباراً للفرد وقيمه وإيمانه وأفكاره، ورغم تلك الأجواء المشحونة بأكبر صراع نفسي يعيشه

المرء، كانت إرادة الله تسير بي وتسيّرني، وكنت أقتفي أثرها كما يجب، وحده الرفيق في لحظات القلق والخوف والحزن، وهو خير رفيق.

الدوحة مدينة هادئة تعادي الصخب، على الأقل في تلك الأيام من عمرها، ينام الشارع باكراً في هذه العاصمة الخليجية، ويجد الغريب فرصة كبيرة لعقد أكبر صفقة حزنٍ مع البحر، الأشهر التي قضيتها أمام ميناء الدوحة، كانت كفيلة بترميم جراحات كثيرة وسَبْر أخرى، وعلى صخور شاطئه ارتسمت خارطة المشوار القصير على مقياس الزمن البشري، الطويل والمرهق والمنهك في قياسات النفس الموجعة والشفافة والطامحة والمتقلبة على جمر محطات الحياة المختلفة، أكبر عملية إعادة إنتاج يعيشها المرء تكون في أدق لحظات الوحدة والغربة وأكثرها هدوءاً، الصور التي ترد في تلك الساعات صافية وخالية من كل الرتوش والإضافات، تنقشع البقع السوداء التي تتراكم بتأثير الزمن والأفعال ما كان مقصوداً منها وغير مقصود، وتتجرد من كل الحمولات الإضافية، تحضر صورةٌ زاهية وأصلية للوطن، تقترب أحياناً وتبتعد أحياناً أخرى، لكنها تحافظ رغم المسافة على جودتها عالية، الوطن بلا عبث السلطة السياسية وأوهام جيش المنتفعين الذين تعلقوا بمركبه الجميل وحمّلوه بأعبائهم الكبيرة، بلا رجال الدين والثقافة والصحافة والفن الذين ارتكبوا كل آثامهم في قمرة قيادته، وحرفوه بعيداً عن مساراتنا، نحن معشر العشاق البسطاء.

في الليالي البعيدة تنعقد قمم الغرباء على ضفاف الخليج، أكثر من غريب يمارس التأمل هنا، الأضواء الساطعة من الفنادق المطلة على الساحل تكشف عن عشرات المراكب

الهائمة على وجهها دون بوصلة، مركب كبير يحمل علمَ وطني عالياً، أو هكذا توهمتُ في لحظة ضعف، ومركب يحمل علمَ وطنِ الغريب المجاور لي، وأخرى تحمل أعلاماً عربية تائهة، توحدت لهجات الحزن فوق هذا الرصيف الأنيق، يتبادل سعوديٌّ مع مصريٍّ همومهما الصغيرة على ضوء القمر، والفلسطيني الذي التقيته البارحة بلا همٍّ مماثل، العجز والسوء الذي يسكن كل الأوطان العربية تفشى كالداء في جسده النحيل، باتت الصورة مشوهة على قسمات وجهه الحادة، يعاني هذا الرجل حتى في خياله، ولا تشير بوصلته في اتجاه محدد، العراقيون من كثرتهم ودوام غربتهم أنتجوا أوطانهم الخاصة في الغربة، ولا يجد الغريب الآخر طريقه لها بسهولة، لغة الحزن الاستثنائية في الحالة العراقية مشفرة وعصية على التعلم، غرباء المغرب العربي يتقنون العزلة كما يجب، همومهم وأحزانهم مسيّجة بإحكام كبير، وهناك غرباء كثر جلبوا أحلامهم من كل مكان وافترشوا البحر بعد منتصف الليل، لحظات الفراغ الموحشة مختلطة بالحزن والشوق والأمل تستدعي كل الأفكار، تُكسب المخيلة البشرية قدرة مضاعفة واستثنائية على استحضار كل الصور، تمنح العاطفة طاقة إضافية، ويصبح من غير المستحيل على الأم التي غابت من اللحظة الأولى دون لقطة فوتوغرافية واحدة، أن تحضر كل مساء، ودون ملامح واضحة، تجلب معها الدعاء والأمل، فيزهر الكون بالإيمان والقدرة والإرادة، وينساب الملح في مجرى الماء الممتد من العين إلى البحر، حينها يعلن النور إسدال الستار إيذاناً بانتهاء الليلة وانتظار الليلة القادمة، تصمت الطائرات والسيارات، يصمت الفندق، المسافة من البهو إلى الغرفة في الطابق الرابع موكب تشييع يومي.

هناك ما يغري دائماً بالكتابة عن النفس، الرغبات الدفينة لدى الإنسان تدفعه أحياناً لفعل هذا الأمر، لأغراض التباهي وعرض الإنجازات، أو لحاجة «غير واعية» بإعادة إنتاج الأحداث كما نتوهمها لا كما جرت حينها، أو أن إنجازاً لاحقاً مهما بلغت قيمته يأخذ خيال الناس بعيداً، ويمنح الأحداث السابقة «البسيطة» قيمة استثنائية بأثر رجعي، ويضفي عليها طابع الإعجاز، نافياً عنها عنصر التلقائية والعفوية والعادية الناتجة عن التفاعل الطبيعي، ولما فكرت بهذا الكتاب، لم يرد إلى ذهني لحظة واحدة موضوع السيرة الذاتية، أو أن يكون الغرض منه تقديم عرض لشريط الأحداث الماضية من زاوية الحديث عن الذات. لديَّ قناعة راسخة أن كتابة السيرة تتعارض تماماً مع فكرة التواضع، على الأقل في فهمي الخاص لهذه المسألة، وينتابني نفور كبير من اللحظة الأولى التي أستشعر فيها رغبة أي كاتب في الحديث غير المبرر عن نفسه، مع ما يصاحب ذلك عادة من أوهام حول الذات، وثراء التجربة والرؤية للأشياء، ولا أظنني بصدد ارتكاب تلك الخطيئة في هذا العمل الذي أضعه بين يديّ القارئ الكريم، ما أغراني في خوض تجربة الكتابة والتأليف أمور عدة، بعضها ذاتي والآخر تولى أمره المقربون من الأصدقاء، أحدهم ناشر هذا الكتاب الصحفي السعودي الأستاذ نواف القديمي، الذي بمجرد تناول فكرة الكتابة معه كصديق، دون قرار جدي ونهائي أول الأمر، وجدتنا نتحدث في التفاصيل ونقطع شوطاً مهمًّا في إنجاز المهمة، ولا أعرف الآن كيف جرى ذلك بالضبط، لكن معشر الناشرين يجيدون إيقاع البسطاء من أمثالنا في أفخاخهم الشائكة!.

وأجد لزاماً عليّ قبل كل شيء، التحدث عن فكرة الكتاب وهدفه، وما دفعني بشكل كبير لتقديمه إلى القارئ العربي. في الغرب تزدهر عملية الكتابة والتأليف بشكل كبير، ونجد نتيجة ذلك مكتبة ثرية مليئة بالعناوين المهمة منها وغير المهمة، لكن القارئ هناك يجد كل ما يبحث عنه، الكتب العلمية والأدبية والفنون بأنواعها، وأكثر ما يجد رواجاً لدى القارئ الغربي تلك الأعمال التي تستند إلى التجارب الشخصية، من حيث واقعيتها وخلوها من التعقيد، وقدرتها على تقديم النموذج العملي المعاش، وهذا ما لا نلحظه كثيراً في مكتبتنا العربية بشكل كبير. هناك عوائق كثيرة تتعلق بالثقافة التي تقلل من قيمة الفرد وأهمية ما يقوم به، والرغبات المبالغ بها في الظهور بمظهر المتواضع أمام الجمهور الذي ينظر لمسألة عرض التجارب الشخصية بكثير من الحساسية، دون أن يدرك أحياناً القيمة العالية لهذه التجارب وأهمية تراكمها، وما ينبغي التوقف أمامه في كتابة التجارب ـ وليس السير ـ الشخصية، أنها تأتي في سياق أوسع مما تبدو عليه، وعرض التجربة الشخصية ليس بغرض الحديث عن النفس، والاستطراد في ذكر أعمال المرء وإنجازاته، واستثمار معرفة الجمهور به نتيجة عمله في الصحافة أو السياسة أو أي مجال آخر، بل الرغبة بعرض الأفكار التي توصل لها أصحاب هذه التجارب، ولا تجد مشروعية في عرضها وتقديمها للناس إلا عبر مجال التجربة الشخصية.

إن الصراع الذي رافق ولادة هذا الكتاب أعقد بكثير من تلك الصراعات التي عشناها مع فيودور دوستويفسكي في رواياته المؤثرة والرائعة، وقد بدأ الصراع مع اللحظة الأولى للكتابة، ولم يتوقف حتى بعد الانتهاء منه! أعترف الآن بأني

قررت مرتين التراجع عن نشر هذا العمل؛ مرة للأسباب التي ذكرتها سابقاً، وخشية الفهم الخاطئ والانطباع الأول الذي قد يتشكل لدى المتلقي، ومرة لخشيتي الكبيرة من عدم النجاح في إيصال ما أريد إيصاله للقارئ، لكن الصراع حسم لصالح الجانب المؤمن بأهمية سرد التجارب الإنسانية مهما كانت بسيطة، دون أوهام ولا رغبة مباشرة أو خفية بـ«نمذجة التجربة»، وإضفاء هالة من العظمة عليها. إن الكتاب الذي بين يديك ينشغل بفكرة الإصلاح والصلاح والتطور والنهضة والتغيير، ينشغل بالفرد والأمة وهمومها وآمالها العريضة والعقبات الكبرى التي تقف في طريق ذلك، ويسعى لعرض هذه الأفكار من منظور التجربة الإعلامية ودور الصحافة الذي أسهم بشكل فاعل في معظم الأحداث التي شهدناها في المنطقة العربية طوال العقدين الماضيين.

كانت أحلام ملايين الشباب في هذه الأمة العربية العظيمة على مساحة التراب الممتد من المحيط إلى الخليج عرضة لرياح اليأس، كل ما نحلم به أخذ نصيباً وافراً من السخرية والاستهزاء والتسخيف، والوأد من قبل الأنظمة والنخب المتواطئة معها وجماهير المحبَطين والمُحبِطين. أحاديث الديمقراطية والحرية والكرامة والتغيير والنهضة، الرهانات على الطاقة الكامنة لهذه الأمة الشابة وأحقية العناء والتضحية والفداء، الإيمان الخالص بالروابط الكبيرة والمتينة بين مكونات هذه الأمة، تعرض مجتمعاً لأبشع عملية تشويه وتحطيم تشهدها أمة من البشر. أصبح الإيمان بالاستبداد والاستعمار الجديد وقدرية الهزائم الداخلية والخارجية وحتمية الانحطاط عنوان مرحلة طويلة عشناها أفراداً ومجتمعات طوال

العقود الستة الماضية، تفشت الانتهازية بشكل غير مسبوق وبات معها كلُّ فعل صحيح نبيل ضرباً من الجنون والمثالية المفرطة، أصبحت أرضنا أكثر خصوبة للفساد والفشل والهزائم والسوء، وهدر الكرامات وقتل الكفاءات وتفويت الفرص، ومع ذلك، استمر الناس بأحلامهم، وأعني الطليعة منهم على وجه الخصوص، كلٌّ يحلم بطريقته الخاصة، وبالقدْر الذي تيسر له، والهامش المتاح أمامه، لتجد البقع البيضاء الصغيرة والمضيئة نفسها في لحظة توحد كبرى، ورغم السواد القاتم في المشهد الكبير، تشاء أقدار الأحلام الصغيرة أن تفجر ثورة العرب الكبرى والحقيقية في منتصف ديسمبر/ كانون الأول من عام ٢٠١١، انتفضت الهمم والأجساد والأرواح والأقلام والأصوات والأغاني، أظهرت الإرادة القوية والإيمان الحقَّ هزالة الاستبداد الجاثم على صدر الأمة، تهاوت بنايات الظلم والقمع والتفرد والاستحواذ التي شيدها كل ديكتاتور عربي في بلادنا، اجتُثت أشجار الأمن والمخابرات والمباحث السامة التي انغرست في جسد هذه الأرض، وانتهت أسطورة التخلف في هذه الأقطار المتناثرة على امتداد الجغرافية العربية، انتهت في أماكن، وتوشك على النهاية في أماكن أخرى.

إن الإعلام الصحفي يلعب دوراً نهضوياً مؤثراً لو توافرت الرغبة والإرادة الحقيقية والآليات المطلوبة، ويلعب دوراً سلبياً ومناهضاً للتطور إذا اختط لنفسه مسارات أخرى، وهو ما لمسناه بكل وضوح في كل قطر من الأقطار العربية في التاريخ المعاصر، احتكرت السلطة السياسية في العالم العربي وسائل الإعلام بشكل كامل، وجعلت منها منبراً للتعبير عن أفكارها وآرائها ومواقفها المختلفة، دون أن يكون ذلك عرضة للنقاش أو

النقد، أرادت من الإعلام أن يقوم بالترويج الفج والمباشر لمشروعها السياسي في كل حالاته، دون أن يحظى بأدنى هامش من الحرية والاستقلالية، ومن هذا المنطلق بات من غير الضروري اعتماد المهنية والحرفية في عمل مؤسسات الإعلام المختلفة، فكرة الاحتكار تتعارض مع الحاجة إلى ابتداع الأفكار ووسائل العرض، وحدها السلطة السياسية تملك حق التعبير عن نفسها دون نقاش أو مساءلة من أحد، فما حاجة المرء إلى الابتكار والتنوع والإقناع، وإن كان مشروع الزعيم العربي الراحل جمال عبدالناصر يستحق الاحترام والتقدير على الصعيدين الوطني والعروبي، إلا أنه ارتكب إثم وجريمة الدمج بين عالم الإعلام وعالم الإيديولوجيا بشكل غير مسبوق، وهدم المسافة اللازمة بينهما. تم توظيف مؤسسات الإعلام والصحفيين العاملين كبوق دعائي وترويجي للمشروع السياسي بكل أخطائه، دون السماح بهامش يسهم في تصحيح المسار ومعالجة السلبيات وتقييم الأوضاع وتقويمها بالشكل السليم، أسست هذه الحالة لشرعية الكذب والتزييف وتزوير الوقائع وتصويرها على نحو خاطئ، وبقدر ما تفشت قيم العروبة والسيادة الوطنية والتنمية وحب فلسطين، صاحب ذلك رواج هذا النمط من الإيمان بطبيعة عمل وسائل الإعلام ودورها والشكل الذي تكون عليه، واحتاج العرب لنصف قرن من الزمان حتى تنهض فكرة مقابلة في رؤية العمل الإعلامي تستند إلى المهنية والموضوعية والاستقلالية الكافية، والسماح بحرية التعبير، دون أن يعني ذلك غياب المشروع ووجود الأولويات والتأثير الإيجابي للإيديولوجيا ووضوح الهدف بعيداً عن ادعاءات الحياد الزائفة، لكن ثمن الانتظار الطويل كان باهظاً دفعه العرب من رصيد حياتهم واقتصادهم وتعليمهم وسيادتهم الوطنية.

يجوز القول إن تجربة قناة الجزيرة قدمت أنموذجاً إيجابياً في الشكل الذي يجب أن تكون عليه وسائل الإعلام، ولنقل الحد الأدنى إن ابتغينا السلامة وعدم المبالغة، اعتماد المهنية من اليوم الأول، وهامش الحرية في التعبير وتناول القضايا بشكل نقدي، مع القدرة والرغبة بعرض معظم الآراء والمواقف، أسهم مجتمعاً في الحضور الكبير الذي حققته القناة الإخبارية الرائدة في المنطقة العربية، لعبت الجزيرة بوعي دوراً كبيراً في كسر الأنماط السائدة للعمل الإعلامي، كانت المرة الأولى التي تطرح فيها المواضيع الحساسة والساخنة على طاولة النقاش بجدية كبيرة، وقد أطلقت دولة قطر «مغامرتها» الكبرى المتمثلة بالجزيرة في منتصف التسعينيات الميلادية، ومع تولي الأمير الحالي الحكم في البلاد، وثارت حينها الأسئلة الملحة حول طبيعة النظام السياسي غير الديمقراطي في البيئة التي تحتضن القناة وترعاها، وكيف يمكن لحرية الإعلام أن تجد ما يدعمها ويحميها في هذه الأجواء، ومع مرور الزمن تبين أن حرية الإعلام والإيمان بها يشكلان رافعة سياسية لأي نظام سياسي يتبنى هذا المبدأ، رغم الثمن الذي يدفعه نتيجة خوضه هذه الغمار، وقد أسهمت الجزيرة بشكل كبير في تحريك المياه الراكدة وإطلاق الطاقات المكبوتة وإحداث التحولات التي استفاد منها الجميع بلا استثناء، وذلك ما تمثل بثمار الحرية والتغيير والتحول نحو الديمقراطية التي يعيشها أكثر من بلد عربي، وكان للجزيرة بتقصيرها وأخطائها وعيوبها سبق الإيمان بأهمية وقيمة الإعلام الصحفي في زمن الترفيه البريء وغير البريء في حقبة التسعينيات الميلادية من القرن العشرين، وتبين مع مرور الزمن أن امتهان انتقاد الجزيرة كمؤسسة

إعلامية، كان غالباً بقصد إدانة الجانب الصحيح من عملها، لا بغرض إدانة الخطأ والتقصير والمطالبة بمزيد من الحرية والمهنية، إضافة لتوهم البعض بتوفر القدرة المطلقة غير المحدودة للجزيرة ومحيطها السياسي ووجوب قيامها وحدها بكل شيء، وهنا يرتكب المرء خطأ كبيراً في فهم الواقع الذي يحكم العمل الصحفي ويحدد ملامحه وطبيعته، والتقييم الإيجابي للمهمة الإعلامية والتنويرية التي قامت بها الجزيرة ليس من باب التزلف، بل ينطلق من فظاعة المشهد الذي كانت عليه الأمة في مرحلة من المراحل، هكذا ينظر المرء للأشياء، يضعها في محيطها ويبدأ المقارنات، ولا ينتقي ما يوافق هواه أو موقفه أو مصلحته، كما أن الفعل السياسي لدولة صغيرة ومثيرة للجدل مثل قطر أطلق الشرارة الأولى لكل ما يجري حولنا اليوم، ولا يجوز بأي حال من الأحوال تجاوز النقد مع المؤسسة والدولة التي رعت هذا الأمر شرط ألا يكون الغرض إدانة الجانب الجيد والصحيح من السلوك.

يستطيع الصحفي الحقيقي عبر وسائل الإعلام التقليدي والإعلام الجديد الإسهام بالنهضة، وما تحقق من ثورات وانتفاضة على الواقع المرير ما كان ليحدث لولا إسهام مئات الصحفيين العرب في مختلف وسائل الإعلام، أولئك الذين دفعوا أثماناً باهظة نظير مصداقيتهم واستقلاليتهم وإيمانهم العميق بالحرية وحقوق الإنسان وسيادة العدالة والقانون، وهؤلاء ـ رغم قلتهم في خضم جيش المرتزقة والمنتفعين والانتهازيين في وسائل الإعلام العربية الكبيرة والصغيرة ـ وتدٌ ثابت من أوتاد الثورة العربية ضد الواقع المرير، الذي قُضي

على أجزاءٍ رئيسة منه في أوطاننا، وما زال المشوار طويلاً للقضاء على ما تبقى منه، وليست الجزيرة هنا أو بعض صحفييها من يعول عليهم فقط، بل كل صحفي في جريدة وإذاعة وتليفزيون وطني أو جهوي يقوم بذلك، لا يحدث أن تتنزل حرية الصحافة من السماء على البشر، إنما تتحقق للناس بالنضال المستمر والإيمان بدور وأهمية الصحافة كسلطة رابعة في المجتمع، تراقب الأداء وتقيمه وتنتقده على الدوام من أجل تحسينه وتطويره، وما كان من حال للصحفي في وسائل الإعلام العربية طوال العقود الماضية، إنما يحتاج إلى مراجعة جادة ورصينة وشفافة، اتخذ الصحفي لنفسه موقع الملحق والتابع للسلطة السياسية، أو هكذا وجد نفسه في بعض الأحيان، يبرر لها ويروج بوعي أو دون وعي لمشروعها، ويبني جداراً كبيراً بينه وبين جمهور المتلقين يفقده الحساسية والمعرفة اللازمة لهموم المجتمع الذي يعيش فيه، وقد أسهمت السلطة بخلق نموذج رديء للصحفي العربي وأسبغت عليه طابع النموذجية والنجومية؛ حتى يستهدي به الوافدون الجدد إلى هذه المهنة؛ ما راكم على المدى الطويل من حالة التردي والتراجع والتواطؤ في مجموعات الصحفيين الذين يعول على دورهم ونشاطهم، والثورات العربية تعيد الاعتبار اليوم للمهنة والعاملين فيها، ورأينا كيف توحد الصحفي مع مجتمعه وأمته، وأصبح يلعب أدواراً بالغة التأثير في التغيير الذي نعيشه، لا يمكن للصحفي الحقيقي أن يشعر اليوم بعزلة إن هو مارس مهنته كما يجب، ثمة ما يحميه ويدافع عنه ويقدر جهده في الأوضاع الجديدة، بل إن حجم الضغوط والتوقعات زاد عن السابق، أصبح الدور المنوط بالصحفي ملحاً في المساهمة بإتمام عملية التحول

الديمقراطي، والثقافة النقدية التي كانت عرضة للقمع والتنكيل أصبحت رائجة في عالم اليوم وتم التسليم بها؛ ما يعزز من الفرص المتاحة للقيام بالمهنة على أكمل وجه.

من العرض السابق لبعض العناوين الرئيسة والمهمة في واقعنا العربي المعاش، يجد الكتاب نفسه منشغلاً ببعض القضايا المتعلقة بعمل الصحفي وتكوينه الانفعالي والمعرفي وموقفه وطبيعة أدائه المهني، والصراع الناشئ بين عالم الصحافة والأفكار والتوفيق بينهما، كما أنه يسلط الضوء على عالم التليفزيون الكبير من منطلقات التجربة الشخصية في مرحلتها الأولى الموجهة بشكل رئيس للمتلقي المهتم بطبيعة الإعلام المحلي، وذلك عبر التجربة المتواضعة للكاتب في إذاعة وتليفزيون المملكة العربية السعودية من الفترة ١٩٩٩-٢٠٠٤، ثم الانتقال مباشرة إلى أكبر تحد واجهه الإعلام الصحفي في عالمنا العربي نهاية عام ٢٠١٠م وحتى اليوم، والمتمثل بالربيع العربي، الذي اشتعلت ثوراته في أكثر من بلد عربي من المحيط إلى الخليج، والسرد هنا مرتبط بقناة الجزيرة وتغطيتها وبعض ظروف تكوينها ومحددات عملها كما يفهمها الكاتب لا كما تعبر هي عن نفسها، وقد أفرد لهذا المساحة الأكبر من هذا العمل، إنه ببساطة رواية طويلة لنتيجة يراها الكاتب من موقعه وزاويته وعمله وتشكل أفكاره الأولى؛ الأمر الذي يتطلب العودة إلى البدايات الأولى، وإلى مرحلة ما قبل الربيع العربي بسنوات طويلة..

علي الظفيري

الدوحة، ١٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١١م

الفصل الأول

زمن ما قبل الثورة

الصدمة

في صبيحة اليوم الثاني من أغسطس/آب عام تسعين من القرن الماضي، تعرضت لأقسى محاولة إيقاظ في حياتي وأصعبها، يومها على وجه التحديد استيقظت أشياء كثيرة في داخلي: العقل من سبات طفولته، والوعي من جهله المطبق بكل ما يدور حوله في هذا الكون، والروح القلقة، والشغف، والتمرد، والرغبة غير المحدودة في المعرفة، واستيقظت روح الثورة على كل ساكن في هذا العالم.

كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها جنديًا عربيًا من دولة أخرى يحمل السلاح في شارعنا، ويقيم نقطة تفتيش مدججة بالمدرعات والآليات الثقيلة، ويطلب من المارة إبراز بطاقة تعريف الهوية الشخصية، وإظهار ما يلزم اللحظة من خوف ورعب، وهي المرة الأولى التي يدوّي فيها صوت القذائف في أذني، وأرى جموع البشر تسير في تخبط دون انتظامها المعهود. هناك سيارات كثيرة تسير في مختلف الاتجاهات على غير المعتاد، وكنا ننتقل من تجمع صغير إلى تجمع غيره، في كل مجموعة كان أحدهم ينظّر في الأحداث

الجارية، يحاول أن يرشد الناس إلى ما يجري من حولهم، لكن محاولات كل هؤلاء ـ وإن بدت منطقية بعض الأحيان ـ كانت تبوء بالفشل؛ فحالة الرعب التي نشأت عن دخول القوات العراقية الغازية إلى الكويت أربكت كل شيء في المحيط.

وقطعاً كنتُ ـ ولم أتمّ الخامسة عشرة بعْد ـ أكثرَ هؤلاء المرعوبين، واستقر الهلع في داخلي وأنا ألحظ جفلة الارتباك الكبرى من حولي بشكل غير مسبوق، تمنيت أن أعود إلى فراشي ثانية، وأحلم بالمباراة المصيرية التي سنخوضها عصراً مع فريق الحارة المجاورة، أو أنام بهدوء كما كنت أفعل بعد كل يوم طويل في السنوات السابقة، لكن ذلك لم يحدث حينها، ولم يحدث مرة أخرى بكل أسف. وزوجة أخي التي أيقظتني في الصباح تطلب أن أنهض على وجه السرعة استعداداً للرحيل إلى المجهول، وفي محياها هلع أهل الأرض قاطبة، لم يجد رفضي وتمنعي ورغبتي في عدم الذهاب مكاناً في جغرافيا الهستيريا التي ارتسمت على ملامحها، لم تدرك المرأة الطيبة أنها ذلك الصباح المشؤوم قد أنهت مرحلة من عمري ودشّنت أخرى، وأنها سحبتني من عالم الأحلام الصغيرة ورمتني في حفرة الواقع الجديد المرير!

أزمة هوية

لماذا يولد الإنسان سعوديًّا في الكويت، بدل أن يولد في بلاده كما يجب أن تكون الأشياء؟! ظلّ هذا السؤال يشغلني طوال فترة المراهقة وما بعدها، وحتى البارحة كما أعتقد، حالة الإرباك الكبيرة والتيه وانعدام الهوية في مرحلة ما من حياة الفرد، تدفعه إلى الأسئلة المزعجة، واستطاعت الحواجز الترابية التي وضعها السير بيرسي كوكس في خيمة صغيرة في «العقير» عام ١٩٢٢م، أن ترسم ملامح مستقبلنا وطموحنا وعلاقاتنا بعد ذلك بعقود، لم يدر في خلد السيد كوكس ولا المجتمعين معه لرسم الحدود في هذه البلاد ـ سلطان نجد آنذاك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وصبيح بك وزير المواصلات والأشغال ممثل فيصل الأول ملك العراق، وجون مور الوكيل السياسي البريطاني في الكويت وممثلها في الاجتماع ـ أن ما توصلوا إليه في عامهم ذلك، وفي معاهدتهم تلك، سيؤزم حياة شاب بسيط تقطعت أوصال هويته على الخط الفاصل بين بلدين عُرِفا لاحقاً باسمين دوليين هما: السعودية والكويت.

وسؤال الهوية البسيط والمقلق في نطاق الذات، تحول

فيما بعد إلى قضية رأي عام أكثر قلقاً وإرباكاً بين مجموعة الأصدقاء التي تعيش الظروف نفسها. كان عشرات الآلاف من حملة الجنسية السعودية يعيشون في دولة الكويت لأسباب متعددة، منها: أنهم لا ينظرون باهتمام كبير لتلك الحدود والفواصل بين البلدين، ولا يعيرون قيمة لتلك الأوراق والوثائق التي تحدد الانتماء القانوني والسياسي لكل فرد.. إنهم ببساطة شديدة يتنقلون لاعتبارات أخرى، لا علاقة لها من قريب أو بعيد بما استجد من أوضاع سياسية، وما نشأ من دول في المنطقة، ويحدث هذا بين كل دولة خليجية والدولة التي تجاورها؛ ونتيجة هذا الوضع المعقد اشتعل سؤال الجنسية والانتماء بعد غزو العراق للكويت، وباتت مجموعاتنا الشبابية السعودية التي ولدت في الكويت، واندمجت في محيطها بشكل كامل، على موعد يومي مع القلق المتزايد بهذا الخصوص، وأصبحت أمور الدراسة والوظيفة والحقوق الكاملة حدًّا فاصلاً بين من يقيم في هذه البلاد ومن يحمل أوراقها الثبوتية، ولا أحد يعير انتباهاً لغير الأوراق الرسمية، التي جاء بعضها بالصدفة المحضة أو بالرشوة أو بالتزوير!

بعد سنوات قليلة كشف كتاب الأديب اللبناني أمين معلوف **الهويات القاتلة ـ قراءات في الانتماء والعولمة** هزال الهم الصغير، وجعل من أزمة الهوية الكبرى لدى بعضنا قضية شخصية بسيطة ومحدودة، وتسقط بعدها كل الشعارات الكبرى المرفوعة بين مجموعات النضال الصغيرة.. المسألة برمتها لا تتجاوز عقدة علامات فاصلة في جسد واحد، هكذا أردنا تبسيط الأمور، رغم أنها لم تكن كذلك بالفعل، ولن

تكون يوماً، وتشاء المعاناة أن توجد تخريجات لأصحابها كما تفعل المسكنات الطبية؛ فيبدو أمر رتيب أن يولد الإنسان في وطنه وينتهي الأمر! وما معنى أن يجد المصريُّ نفسه مولوداً في مصر، والسعودي في السعودية، والكويتي كذلك؟! ما معنى أن يجد الإنسان نفسه بلا معاناة مع النشيد الوطني؟! وأن تكون حياته رهينة وجدان واحد يأسرها ويتحكم بها؟! وألا تكون لديه أزمة عاطفية مع فكرة المنتخب الوطني لكرة القدم في بلاده، وألا يجد نفسه يوماً في أزمة حقيقية بين فريقين كرويين، أحدهما يمثل وطنه الأم والثاني وطنه الذي اعتاد عليه؟! وأن ينشأ على تاريخ ما، ورموز تاريخية بعينها، وروح وطنية جياشة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأرض والتراب والمساكن والشوارع والأحداث، ثم يكتشف في نهاية المطاف، أن هذا الأمر لا يعنيه بشيء، أو على الأقل ثمة من يقول له ذلك؟!

إن الحياة بلا إثارة لا قيمة لها، والمفاجآت التي تنتظرك على الطريق تمنح حياتك المملة العادية نكهتها الخاصة، يحدث هذا أحياناً في حياة بعضنا، فيجد أنه بعد مشوار وطني مكتمل الملامح، قد أخطأ الجادة الصحيحة، وعليه أن يكرر المحاولة مرة أخرى مع وطن جديد.

جريوة

شكلت الصفحات الأخيرة لجريدة **القبس** الكويتية عالمي الصغير؛ أجد فيها كل ما أبحث عنه من أخبار الأندية الرياضية التي أحبها، والمشوار من المنزل حتى إشارة المرور، حيث بائع الصحف هو الأكثر صعوبة ولذة في تلك الأيام، فلا يخلو الطريق من عصابات الحارات المجاورة ونقاط التفتيش التي يقيمها الصبية في مناطق نفوذهم، لكن المكافأة المرجوة ثمينة جدًّا وتستحق العناء، وما يتبقى من المبلغ بعد شراء الجريدة يكفي لعلبة عصير «سانكيست» باردة لا تتوفر كثيراً في أيامنا.

وبعد قراءة أخي للجريدة يبدأ عملي الممتع، يجد المقص المعدني الصغير ما يشغله في الصفحات الأخيرة، وتبدأ عملية التقطيع والحفظ في «ألبوم» مخصص للصور المفضلة بعد مشاهدتها، وقراءة ما تيسر من أخبار الرياضة بأنواعها كافة، وأعتقد جازماً أن نادي «كاظمة» الكويتي و«الشباب» السعودي لا يمتلكان من صور لاعبيهما بقدر ما تحفظه ألبومات الصور التي جمعتها في الأعوام السابقة للغزو العراقي!. كنت أتساءل بعد تقطيع أوصال كل عدد من أعداد

الجريدة: كيف يمكن لهذه الثروة العظيمة أن تباع بـ«مئة فلس» فقط؟!

الليل في أيامنا كان مملاً، والمسافة الفاصلة بين غروب الشمس وصراخ الأمهات الغاضبات لأطفالهن، وبين زمن النوم طويلة جدًّا، والطفل ـ الذي لا أمّ له ينهي نداؤها عبثه ولعبه ومعاركه ـ يجد الوقت الكافي للانشغال بهذه الجريدة كيف يشاء، أو العبث إلى ما لا نهاية. وكما كان مظفر النواب يرى في بعض المرأة قارباً يعبر فيه الليل، كانت نسختي اليومية من الجريدة تمثل ذلك القارب، وبعد ذهاب أجزاء منها ضحيةً لإحدى الموائد، وتأخذ الأجزاء الأخرى طريقها إلى رفوف المطبخ، يجد بقية الجسد المقطع طريقه إليّ، فأعيد ترتيبه وقراءته، ثم أبعث الحياة مرة أخرى لصوره البراقة في «ألبوماتي» الكثيرة، ولا يزال هناك متسع من الوقت؛ ما دفعني في تلك الأيام لقراءة لافتات أحمد مطر، الشاعر العراقي الفذ الذي كان ينشرها يوميًّا في الجريدة من لندن، بعد أن أدت ضغوط النظام العراقي إلى طرده من الكويت، والتأمل طويلاً في حنظلة، طفل ناجي العلي الذي لم يلتفت لي يوماً لأراه، وأدركت لاحقاً، وبأثر رجعي، أنّ ما كنت أراه وأقرؤه دون اكتراث، جسّد واحدة من أهم التجارب النضالية الأدبية الراقية، شعراً ورسماً؛ وهو ما فاجأ يوماً الأستاذ «سعيد السوري» معلم اللغة العربية ـ هكذا كنا نسميه ـ حين قسا علينا في حصة اللغة العربية، مستنكراً عدم حفظنا شيئاً من الشعر العربي الفصيح!

والأستاذ سعيد المعلم الجديد في مدرستنا يحمل تصورات مغلوطة عن بيئتنا الاجتماعية، هنا يمكنك أن تسمع

شيئاً للعظماء من شعراء البدو كـ «شالح بن هدلان» و«راكان بن حثلين» أو لـ «سند الحشار» يقول: (كم واحد للموت حنا جلبناه، بالمذبحة تسفى عليه السوافى). لكن من غير المتوقع في تلك الفترة أن تجد صدىً كبيراً لشعر «نزار قباني» أو «محمود درويش» أو «البياتي» أو من سبقهم، وهذا لا يعني أبداً انعدام المثقفين والمتعلمين في تلك البيئة، لكنهم ندرة في تلك الأيام، عكس ما شاهدناه في العقدين الأخيرين من ازدهار الثقافة والمعرفة، وبزوغ أعداد كبيرة من أبناء البادية في مجالات العلم والمعرفة. ولما قرأت على الأستاذ «سعيد» لافتة أو اثنتين لأحمد مطر، عبَّر عن صدمته الكبرى، وبالغ في تقدير الأمر على أنها موهبة مدفونة في هذا الركام، وعملية رعايتها وصقلها بدت مسألة واجبة في نظره، وبالطبع خاب ظن المعلم الطيب النبيل لاحقاً، ومحاولات جرّي لعالم الشعر، والاشتراك في المسابقة المدرسية لم تنجح. لا يمكن لشخص مثلي في تلك الأيام أن يحمل «الميكروفون» ويقف أمام مئات الطلاب لينشد شعراً فصيحاً في طابور الصباح!

لم يستوعب المعلم أن هذا الأمر من «المعيبات» حينها، وأن لافتات الشاعر العراقي جاءت بالصدفة المحضة، ونتيجة أزمة الزمن الطويل الفاصل بين موعد مغادرة الرفاق ساحة اللعب، ولقائهم مرة أخرى في اليوم الذي يليه.

ذاكرة للزمن القادم

كان دويُّ المدافع يملأُ السماء في يوم ٢ أغسطس/ آب عام ١٩٩٠م، وسحب الدخان الكثيفة تتجمع في الأعلى باتجاه طريق العبدلي الذي يصل مدينة الجهراء بالحدود الكويتية العراقية، وسقطت القيادة السياسية والعسكرية في البلاد، وانقطع الإعلام في الساعات الأولى، لم يبق سوى بعض جنود الجيش الكويتي البواسل يقاتلون دون مرجعية، والأرتال العسكرية العراقية تمر من الطريق العام القريب من منزلنا. حالة هلع غير مسبوقة شهدتها البلاد في ذلك اليوم.

قريبي يحثني على الذهاب إلى وكالة سيارات موجودة في أطراف المدينة للحصول على سيارة، ويبرر ذلك بالحاجة الماسة إليها في حال مغادرة البلاد، كان أكبر مني بسنة واحدة، وكان الحوار بين حالتي انعدام توازن، لكن قررنا الذهاب بسيارته إلى السوق المركزي للحصول على المؤونة اللازمة، لم نجد شيئاً هناك على الإطلاق، هجمت الحشود من قبلنا وأفرغت كل حمولات الطعام الموجودة، واختار أن يأخذ السكاكين بشكل هستيري أثار استغرابي، وجمعت النسخ الموجودة من الصحف التي داسها الناس بأقدامهم.. كان

العنوان الرئيس في جريدة **القبس** أو **الأنباء** على ما أذكر «سحابة صيف وتنقشع»! ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي على الأقل، تغير كل شيء في حياتي.. انتهت سنوات ما قبل الغزو بعفويتها وبساطتها وهمومها الصغيرة، وانتقلت إلى عالم آخر، أخذت معي من ذلك الزمان «ألبومات» الصور الرياضية، وأحزاني الصغيرة، ووجه أمي الذي لم أشاهده في حياتي على الإطلاق، واكتشفت لاحقاً أني خزنت ما يكفي من الأخبار والصور غير الرياضية في تلك الليالي الطويلة.. لافتات مطر ورسومات ناجي العلي التي كانت تثير إعجابي واستغرابي في نفس الوقت، وصور ياسر عرفات على الصفحة الأولى بالكوفية، وعناوين الشيوعية التي ملأت الصحف قبل أشهر من غزو العراق، وتفاعلت الأسئلة الجديدة والهواجس التي نشأت فيما بعد مع هذا المخزون السطحي البسيط المتبقي من ذلك الزمن، لتجد مرحلة القلق والضياع ما يعززها ويزيد من ارتباكها.

الزمن الأمريكي

سقوط الشيوعية ممثلاً بتفكك الاتحاد السوفياتي، وحرب التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتحرير الكويت، وسيادة مفهوم العولمة وتطبيقاتها، الذي يرى ناعوم تشومسكي أن عدواها انتشرت في كل ما يتصل من تفكيرٍ في العلاقات الدولية منذ نهاية حرب الخليج الثانية التي أعلنت ولادة النظام العالمي الجديد ـ شكلت مجتمعة جملة العناوين الرئيسة لحقبة التسعينيات الميلادية من القرن المنصرم. كان كل شيء في منطقتنا صديقاً لأمريكا، ومرتبطاً بها، ومنطلقاً من أولوياتها، وبدرجة أقل معاداتها والإحساس بالغبن الكبير نتيجة سيطرتها المطلقة على النظام الدولي الجديد، وانتشارها العسكري الواضح والفج في منطقة الخليج.

كان جيلنا الذي أعادت له جيوش التحالف الدولي أرضه ومنزله وملعبه في غاية الامتنان لهذه الصورة الأمريكية الجديدة البراقة. لم نكن على قدرٍ كافٍ من الوعي والمعرفة، والاستعداد لرؤية غير هذه الصورة الأمريكية المشرقة، وكان كلُّ شيء من حولنا يدفع بهذا الاتجاه: صورة الجندي

العراقي يحمل سلاحه ويقيم نقطة تفتيش في شوارع الكويت، بعد أن كان الناس في الخليج يضعون صورة الرئيس العراقي السابق في منازلهم، ويرون فيه الزعيم العربي الأوحد، وحامي البوابة الشرقية الذي يخوض حربه وحرب العرب جميعاً ضد المد الصفوي والثورة الخمينية، وكذلك الأعلام الأمريكية والكويتية والسعودية التي يرفعها الجنود في صور تخترق وعينا يوميًّا طوال فترة الغزو العراقي للكويت، في موازاة الدعاية اللازمة ضد واحد من أبشع الأفعال التي ارتكبها نظام عربي في حق نفسه وجيرانه، يوم قرر في الثاني من أغسطس/ آب غزو الكويت بحجج واهية ودون وعي، وما امتد من هذه الدعاية في شقها غير اللازم ضد فكرة العروبة والمصير المشترك والأهداف المشتركة، التي لم تكن بحاجة إلى كثير من الإقناع؛ نتيجة هذا الفعل من دولة عربية جارة. يومها قال الأمير خالد الفيصل عبارته الشعرية الشهيرة: «حنا العرب يا مِدَّعين العروبة»، والتي جاءت رداً على الهجوم من الطرف الآخر بحجة استضافة القوات الأمريكية على الأراضي السعودية، وبات واضحاً في الخطاب الإعلامي لغة «الـ نحن» و«الـ هم»، التي كانت تستخدم كأداة رئيسة في الداخل الرافض أو المتردد في قبول الوضع القائم: الخليجيون ومعهم الغرب وبعض من العرب في جهة، وجبهة الرفض للوجود الأمريكي في جهة أخرى، وكان هناك إغفال واضح لاصطفاف سوريا ومصر سياسيًّا وعسكريًّا مع دول الخليج، والتحالف الدولي في حربهم ضد العراق، بعض الأشياء جاءت رد فعل طبيعي على الوضع القائم، وبعضها وجد الفرصة مواتية لمهاجمة فكرة العروبة وكل ما يمت لها بصلة.

كان منظر الجنود الأمريكيين ـ والجنديات على وجه الخصوص ـ صادماً للكثيرين، يستحق مشهد أولئك الجنود يجوبون أسواق مدينة حفر الباطن، والناس تسير من خلفهم رواية مستقلة بذاتها، والمدينة الحدودية التي تقع شمال شرقي المملكة في وادٍ منخفض لهضبة الصمّان عند التقاء وادي الباطن مع وادي فليج، وتعد ملتقى الطرق الدولية الحديثة التي تربط دول الخليج العربية ببلاد الشام ـ كانت على موعد مع التاريخ بعد غزو العراق للكويت؛ فالمدينة البدوية الهادئة أصبحت قبلة الجيوش الأمريكية والغربية والعربية؛ نظراً لوجود قاعدة الملك خالد العسكرية الأقرب للحدود الكويتية والعراقية، وتوافد إليها بشكل صادم وغير مسبوق عشرات المسؤولين والصحفيين الأجانب، وأصبح أهلها فجأة أمام كل جنسيات الأرض، بعد أن كان الغرباء مجرد عابرين أو وافدين للعمل المؤقت والرحيل بأسرع ما يمكن، وأصبح سوقها القديم ساحة فرجة لمشاهدة الشقراوات يرتدين الزيّ العسكري المرقط، وأكاد أجزم أنها المرة الأولى لمعظم أهالي المدينة التي يرون فيها امرأة بلا غطاء، كنت أحد هؤلاء الذين يجدون المتعة الكبيرة بالتسوق ـ دون مال ـ؛ من أجل رؤية تلك الكائنات الغريبة الفاتنة، رغم إصرار رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ملاحقتنا وطردنا من المكان.

عاشت فلسطين

الجيل الذي قضى طفولته وهو يردد العبارة الشهيرة «عاشت فلسطين»، استيقظ في التسعينيات على فلسطين أخرى غير التي يعرفها وكان يردد اسمها، أصبح هناك ما يسمى بعملية السلام التي تأخذنا إلى فلسطين، لكنها فلسطين أخرى غير التي آمنا بها وقرأنا عنها وتلهفنا لرؤيتها. وأصبح هناك شرق أوسط!. أجزم اليوم أنني واحد من أولئك الذين صدمتهم لغة وخطاب التسعينيات الميلادية، لم أكن مؤدلجاً ولا منتمياً، ولا أعيش في بيئة مسيَّسة تولي اهتماماً كبيراً لما يدور حولها، بل إنها قد انفصلت تماماً بسبب الغزو عن كل ما حولها، لكنني شعرت بغربة كبيرة مع الأحداث التي بدأت تتوالى بعد تحرير الكويت، ولكون فلسطين مسألة مركزية في العقل والتاريخ العربي الحديث، ليس لرمزيتها وعدالة قضيتها فقط، بل لأن كل ما تشكل من تاريخ وما تراكم من أحداث يدور حولها: الحروب والانقلابات والأيديولوجيا والعاطفة والشعر والرسم والحكايات والأغاني؛ لذلك كان أول ما تلقيناه من جرعات معرفية بسيطة يدور حول هذه القضية، ورغم الظروف المحيطة والتكفير اليومي بالعروبة وبالعرب الطامعين في ثرواتنا والمتربصين بثقافة شعوبنا الخليجية ذات

الخصوصية النفطية بمحيطها العربي الطامع والمستهدِف لثرواتها وثقافتها، استقرت الفكرة العربية في داخل وجداننا غريبة مشوهة، تختلط فيها الأحداث بشكل مزعج ومفكك؛ فبين أشعار السلاح والثورة والانتفاضات الشجاعة في وجه المحتل، بدأت قصص السلام تتوالى في المشهد العربي، ورأى من هو مثلي صور القادة الإسرائيليين بجانب بعض القادة العرب والفلسطينيين لأول مرة؛ ففي إبريل/ نيسان ١٩٩١م، أعلن وزيرا الخارجية الأمريكي والسوفياتي استعداد بلديهما لرعاية مؤتمر سلام بين العرب وإسرائيل، ووافقت سوريا في منتصف العام نفسه على المقترحات الأمريكية بشأن مؤتمر للسلام في الشرق الأوسط، تليه مفاوضات مباشرة بين إسرائيل والدول العربية، وكانت سوريا قد قبضت ثمن مشاركتها في حرب تحرير الكويت مقدماً، سُلِّم لبنان لها بالكامل لتستفرد به. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني من العام نفسه عقد أول اجتماع مفاوضات بين العرب والإسرائيليين في إطار عملية السلام، عُرف لاحقاً باسم «مؤتمر مدريد»، وبعد ذلك «اتفاق أوسلو» في العام ١٩٩٣، الذي قام على معادلة الأرض مقابل السلام، ونص على حق إسرائيل في الوجود، وفي عام ١٩٩٤ وقع الفلسطينيون والإسرائيليون في القاهرة اتفاق تطبيق الحكم الذاتي في غزة وأريحا، تولى بعدها الفلسطينيون إدارة أريحا بعد انسحاب القوات الإسرائيلية، كما شهدنا في العام نفسه توقيع اتفاقية «وادي عربة» بين العاهل الأردني الراحل الملك حسين ورئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل إسحاق رابين برعاية الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون، وانفرط عقد مكاتب الارتباط والمكاتب التجارية بين الدول العربية وإسرائيل؛ ففي عام ١٩٩٤م، قرر المغرب وإسرائيل فتح

مكاتب ارتباط في كلتا الدولتين، واتفقت تونس وإسرائيل على فتح مكتبين للتمثيل التجاري في كل منهما، ثم اتفقت جيبوتي وإسرائيل على تطبيع العلاقات بينهما، وافتتحت قطر في العام ١٩٩٥م مكتب تمثيل في غزة؛ لتكون أول دولة خليجية تقوم بذلك، تبعتها سلطنة عمان في العام الذي يليه.

وأصبحت المنطقة مسرحاً لا يتوقف عن العمل والعرض الدائم للاتفاقات والاجتماعات مع الإسرائيليين: اتفاقية طابا، أوسلو ٢، اجتماعات شرم الشيخ شبه السنوية، واي ريفر ١، واي ريفر ٢، تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني، حيث ألغت منظمة التحرير الفلسطينية من ميثاقها كل البنود التي لا تعترف بإسرائيل، وشهد الأزهر منتصف ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٧م، أول لقاء بين مرجعيتين إسلامية وإسرائيلية، إذ التقى شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي الحاخام الإسرائيلي لاو، وصولاً إلى المبادرة السعودية على أساس السلام وإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل في مقابل انسحابها الكامل من الأراضي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧م، وإقامة دولة فلسطينية وعاصمتها القدس الشرقية، وإيجاد حل لقرابة أربعة ملايين لاجئ فلسطيني، لكنها جميعاً لم تفض إلى شيء أبداً.

كان كل ما نقع عليه من شعر وروايات وتاريخ قد كتب بلغة ما قبل عملية السلام، وكان كل ما نعيشه نتاج هذه الحقبة المفرطة بـ سلبيّتها، وحدث اضطراب كبير في وعي جيلنا، الذي بدأ للتو رحلة التعرف على الواقع من حوله، وكان واضحاً حجم الصعوبات التي تواجهها الأفكار والأحلام المرتبطة بالقومية والعروبة والخصوصية الثقافية، إضافة لتراجع الأفكار المرتبطة بالعدالة الاجتماعية والمساواة بعد تغول الرأسمالية والفكر

الليبرالي الذي وجد في الشعارات القُطْرية المزدهرة في البلدان العربية ضالته، وتحت عنوان «الوطن أولاً» انحسر المد العروبي، وراجت الدعايات والسخرية من كل شيء خارج الوطن؛ فالمسرحيات التي لاقت انتشاراً كبيراً في الكويت بعد عودة البلاد كانت تسخر بشكل كبير من العرب، كان التكثيف الأكبر على مواقف ما سُمِّي بـ«دول الضد»، التي وقفت ضد الكويت في إبان العدوان العراقي، لكنها امتدت بشكل واضح للحالة العربية بقصد أو من غير قصد، وكان مجرد الحديث عن القضية الفلسطينية مثيراً للسخرية في تلك الأجواء المحتقنة ضد الفلسطينيين الذين طُرد عدد كبير منهم بعد التحرير، ونشأت حالة مناهضة للفلسطيني ومنه امتدت لأشياء أخرى، واستمر هذا الأمر طويلاً، لكنه لم يدم كما تمنى أصحابه.

بالنسبة لي، مضت التسعينيات كيفما اتفق.. دخلت الجامعة، وخرجت منها بشهادة لا معنى لها، ودون شيء يذكر اليوم، كان انشغالي الحقيقي خارج أسوار جامعة الكويت التي لم أتكيف مع أجوائها رغم بعض الحيوية التي كانت تشهدها، كل ما في هذه الجامعة كان يزيد من غربتي الداخلية؛ الأشخاص، والاهتمامات، والانتخابات التي لا صوت لي فيها، والملابس، والسيارات الأنيقة، عبرت هذا البحر برفقة الروايات الكثيرة وأشعار مظفر النواب ورفيق القراءة والاهتمامات المشتركة الوحيد «سليِّم»، الوحيد الذي كان يحضر وفي يده كتاب جديد، والوحيد الذي كان يشاركني سخرية بقية الأصدقاء من هذا الهوس الغريب المتمثل بالقراءة وجمع الكتب.

الفصل الثاني

في غياهب الإعلام

الصوفـــة

أكثر ما كان يشغلني بعد التخرج من الجامعة هو الحصول على وظيفة، ليس لأسباب مادية واجتماعية فحسب، إنما الرغبة القوية بإحداث قطيعة مع الفترة الماضية بأي شكل من الأشكال، فكل الإحباطات التي تراكمت طوال فترة التسعينيات جعلت الحاجة ملحّة إلى حياة جديدة مختلفة عما مضى، وبقدر الحاجة والإلحاح كانت العقبات.. عامان من البحث المضني عن وظيفة في سلك التعليم لم تأت بنتيجة، لا أحد يبحث عن مدرسٍ لعلم النفس، أغلقت الأبواب بشكل نهائي في وجه الخريج الجامعي الجديد بشكل صادم، لكن نافذة أخرى في خضم عملية البحث شع نورها.. وزارة الإعلام السعودية تعلن فتح باب القبول للمذيعين الجدد من حملة الشهادات الجامعية في التخصصات الأدبية، هذا الإعلان الوظيفي الأول منذ تخرجي لا يحمل في شروطه ما يمنعني من التقدم، ولم يطل الوقت حتى وجدت نفسي داخل الإذاعة السعودية في مقر وزارة الإعلام في الرياض، محاولتي الساذجة دفعت لجنة القبول في الجهة الأخرى من الاستوديو للضحك، لم يكن المتقدم مرتبكاً هذه المرة؛ بل كان إرباك الأرض ماثلاً أمام لجنة الاختبار، وبعد قراءة النصوص

المطلوبة كما يجب، لم يدر في خلد أعضاء المجتمعين سؤال شاب جامعي سعودي عن أمور بسيطة مثل أسماء الوزراء وبعض التواريخ الوطنية، فهذا مما لا يُسأل عنه المواطن على الإطلاق، ولو فعلوا ذلك لما كنت اجتزت اختبارات القبول، ولا كنت ضمن أربعة أشخاص تم قبولهم للتدريب في قسم الإعلام في جامعة الملك سعود لمدة عام دراسي؛ بغرض تأهيلهم للعمل لاحقاً مذيعين في الإذاعة، وذلك بحكم الفترة الطويلة التي قضيتها من حياتي في الكويت، وبقدر الفرحة الكبيرة التي انفجرت بعد انفراج الأزمة والحصول على وظيفة بعد كل هذا العناء، بقدر ما تلبستني هواجس القلق والخوف مما هو قادم، فأنا أتعرف على بلدي الأصلي لأول مرة، أطلع من جديد على عناوينه الكبرى وتواريخه الرسمية، وليس مطلوباً مني أن أكون مواطناً فقط، بل أن أكون المواطن المثالي في معرفته والتزامه وإدراكه لتوجهات الدولة وخططها وسياساتها الرسمية، وأن أقوم بتوجيه الآخرين على أحسن وجه، خلف المذياع وأمام كاميرات التليفزيون.

في مطلع التسعينيات الميلادية، دشنت قناة إم بي سي التليفزيونية عالم الفضائيات العربي، وفي منتصف العقد أطلقت قناة الجزيرة، وما إن تعيّنت في محطة تليفزيون الدمام في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩م، حتى كان الفضاء التليفزيوني العربي مزدحماً بالقنوات المختلفة، الجزيرة تتصدر المشهد الإخباري مع قناة أبو ظبي، وعشرات القنوات الأخرى تتوزع بين الترفيه والرياضة والفن وعوالم أخرى، وقتها كانت السخرية من التليفزيونات الحكومية الرسمية مرتفعة، وازدادت وتيرة الاستهجان والنقد والسخرية اللاذعة شيئاً فشيئاً، كان الناس

يلحظون بشكل واضح البون الشاسع بين عمل المحطات الحكومية والمحطات الفضائية الخاصة، ومع ذلك كان هناك متسع من المشاهدة تحظى به التليفزيونات المحلية بحكم عدم انتشار أجهزة اللاقط الفضائية، إما لارتفاع أثمانها أو تحريمها عند طيف واسع من الجمهور المحافظ؛ الأمر الذي أتاح لنا هامشاً من المتابعة عند الجمهور المحلي، وهو ما لم يتم استثماره أبداً، بل على العكس حدثت أكبر عملية تنفير للمشاهدين في تاريخ التليفزيون؛ الأمر الذي جعل المقارنة بين واقع هذه المحطات الحكومية وعلى رأسها التليفزيون السعودي وبين ماضيها يثير الاستغراب، إذ كانت في السابق أكثر إمتاعاً على الأقل من حاضرها البائس.

رغم انبهاري بعالم التليفزيون وسعادتي بالظهور على الشاشة، إلا أنه وبعد مضي العام الأول تقريباً، تشكلت قناعة راسخة لدي بأن ما نقوم به لا علاقة له بالإعلام من قريب أو بعيد، وأن شيئاً ما لا بد أن يتغير، شعور غريب أن يصل الإعلامي لمرحلة التشبع أو الملل في عامه الأول، والسؤال الذي كان مطروحاً: كيف يكون هذا التغيير؟ لم أكن أعرف بالضبط، المهم في هذه الأوضاع غير المريحة والمحبطة لا بد وأن يحدث شيء ما يغير من الأمر، وربما يكون من المناسب هنا تشخيص أوجه الخلل الرئيسة التي يعاني منها الإعلام الرسمي في المملكة في تلك الفترة، على الأقل من وجهة نظر أحد العاملين فيه والمنتمين والمحبين له، تعد وزارة الإعلام في السعودية جهازاً حكومياً صرفاً، وهي مماثلة تماماً لكل الأجهزة الحكومية الأخرى من حيث الهيكلية وسلم الوظائف والترقيات والرواتب وآليات العمل، والعلاقة مع

جهاز التوظيف الرئيس في البلد المتمثل في ديوان الخدمة المدنية، ويتسبب هذا الوضع الإداري والهيكلي بإعاقة كبيرة لعمل وسائل الإعلام، ذات الطبيعة المختلفة عن بقية الأجهزة الحكومية في أي بلد، كما نلاحظ هنا أن الإذاعة والتليفزيون ووكالة الأنباء جزء لا يتجزأ من هذه المظلة الإدارية التي تحكم عملها، وبهذا الوضع نكون قد أوجدنا كل العقبات اللازمة لإعاقة العمل الصحفي عن المواكبة والتطور والمرونة اللازمة له. وللتوضيح للقارئ الكريم أسوق هنا بعض الأمثلة للتقريب. إن قرار التغطية التليفزيونية العادية والطارئة يخضع لنفس الآليات التي يخضع لها أي قرار إداري في جهاز حكومي آخر، والصحفي العامل في الإذاعة والتليفزيون ووكالة الأنباء يخضع لسلم الوظائف المعمول به في كافة الوزارات والأجهزة الحكومية الأخرى، ولا نحتاج الكثير من الجهد للتفريق بين طبيعة العمل الصحافي وما يلزم الأعمال الأخرى من إجراءات تختلف جذرياً عن الإجراءات المتبعة في عالم التلفزيون. والصحفي في هذه الحالة يتلقى العوائد المالية وينال الترقيات بنفس الطريقة التي يتعرض لها الموظفون الحكوميون في وزارات الدولة؛ وهذا ما جعل مهنة الصحافة والإعلام تخضع لنفس الظروف في الحالات الأخرى، والصحفي المميز في عمله والمجتهد الذي يتمتع بحس إبداعي لازم لمهنته يحصل على نفس العائد، مقارنة بمن لا يتمتع بهذه الصفات. ماذا تنتج لنا هذه الحالة؟ جيش من الموظفين الحكوميين الذين لا يجدون ما يحفز أداءهم ويدفعهم للتميز والتطور في أعمالهم، ولا غرابة أن تجد في التليفزيون والإذاعة من هم في مراتب متقدمة وعالية جداً دون أن يعرفهم أحد من الجمهور، ومن يتصدرون العمل

الإعلامي ويحظون بقبول واسع لدى المتلقين في ذيل القائمة الإدارية، يحدث هذا دون تجاوز في الغالب؛ فالأسس التي تقوم عليها عملية التقييم في أجهزة الإعلام الحكومية لا علاقة لها بالكفاءة والموهبة والتميز، رغم أن أحداً لا يختلف على أهمية هذه الصفات في الإعلامي التليفزيوني والإذاعي، سواء كان مقدماً أو مخرجاً أو مصوراً أو منتجاً.. إلخ، ماذا ترتب أيضاً على هذه الهيكلية الإدارية، يمكنك بسهولة أن تقيس أداء العاملين من حيث الكفاءة، وستصل إلى نتائج سلبية في الغالب؛ فالجهاز الإعلامي «الحكومي» يعتمد آليات القبول المعتمدة في بقية الأجهزة الحكومية دون تمييز للمهنة الصحفية وخصوصيتها؛ وهذا ما ينتج لك في نهاية الأمر طواقم الموظفين لا الإعلاميين والصحفيين، ويجد المسؤول التليفزيوني والإذاعي صعوبة بالغة باختيار فرق إعلامية ذات كفاءة للقيام ببعض المهام، يحدث هذا رغم وجود آلاف العاملين تحت مسميات وظيفية لا علاقة لهم أبداً بطبيعتها والمهارات اللازمة لشغلها!.

هل كان العائد المالي المتدني وآليات الترقيات الجامدة وانتشار غير الأكفاء والبيروقراطية المتفشية سبباً في كل هذا السوء الإعلامي؟ قطعاً لعبت الهيكلية الإدارية دوراً كبيراً في تراجع الأداء العام لوسائل الإعلام الحكومية في السعودية؛ الأمر الذي كان يضطر العاملين للعمل في أماكن مختلفة كالإذاعة والتليفزيون والصحافة في بعض الأحيان لتعويض النقص الحاصل في المردود المادي، كان التليفزيون وحده لا يكفي، والإذاعة وحدها لا تكفي، وهذه أكبر جريمة ترتكب في حق هذين الجهازين الحساسين، وإذا كان الإعلامي لا

يجد ما يكفيه في وسائل الإعلام فمن يجد ذلك! وما يزيد الطين بله أن غير الجادين كانوا ينالون في الغالب فرصاً أفضل وعوائد أكبر وترقيات أكثر من غيرهم، والشواهد على ذلك كثيرة ولا تحصى، وهذه المشاكل التي كان يؤمل على قرار مجلس الوزراء بتحويل الإذاعة والتليفزيون إلى هيئة مستقلة بالقضاء عليها، تراكمت على مر السنين وازدادت تعقيداً يوماً بعد يوم، أما قرار مجلس الوزراء فهو مثل آلاف القرارات التي ظلت حبراً على ورق ولم تجد طريقها إلى أرض الواقع، وكانت «التوجيهات الملكية» واضحة بهذا الخصوص، «وتتعلق بالإسراع بإنفاذ التوجيهات السامية ذات الرقم ٧/٦١٤٨ والتاريخ ١/٥/١٤١٩هـ، وذات الرقم ٧/٣٧٧٧ والتاريخ ٢٩/٩/١٤١٩هـ، وذات الرقم ٧/٩٩٠١ والتاريخ ١٤/٥/١٤٢١هـ، المتضمنة المبادرة بدراسة النظم الإدارية والمالية لوزارة الإعلام وتطوير آلية عملها الإداري في جميع قطاعاتها، بما يحقق المرونة الكافية للارتقاء بمستوى الأداء الإعلامي السعودي، ودراسة إمكانية تحويل كل من الإذاعة والتليفزيون ووكالة الأنباء السعودية إلى مؤسسات عامة، تمنح المرونة المالية والإدارية الممكنة وتدار على أسس استثمارية» (النص كما ورد في جلسة مجلس الشورى الذي اعتمد التوجيهات)، لكن شيئاً من هذا لم يحدث حتى اللحظة، رغم مضي أكثر من عقد على هذه القرارات.

ليس هذا كل شيء، فطبيعة تكوين وزارة الإعلام وأجهزة الإذاعة والتليفزيون من الناحية الهيكلية والإدارية، لم تكن وحدها القيد الذي يطوق هذه المؤسسات، بل كانت الرعاية الرسمية والمباشرة من الدولة لعمل هذه الأجهزة والإشراف

عليها تزيد من تعقيدات العمل الإعلامي في المملكة، والمجلس الأعلى للإعلام برئاسة وزير الداخلية كان المظلة التي تضبط العمل الصحفي في هذه الأجهزة حسب الرؤية الرسمية، في صفر عام ١٣٩٧هـ، صدرت الموافقة الملكية بإعادة تشكيل المجلس الأعلى للإعلام، الذي يرتبط رأساً برئيس مجلس الوزراء، وأسندت رئاسته للأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، وولي العهد الحالي، وعضوية مجموعة من كبار المسؤولين ورجال الفكر بالمملكة، وبالتأكيد كانت التعيينات في المجلس ـ كما يجري عادة ـ على أساس الولاء والقرب من صانع القرار، وقد مرّ إنشاء المجلس بمرحلتين، كان عمر الأولى خمسة عشر عاماً تقريباً (من ١٩٦٧ ـ ١٩٨١م)، بدأت بلجنةٍ لتخطيط السياسة الإعلامية برئاسة وزير الإعلام آنذاك، وبعد أن عقدت بضعة اجتماعات توقفت مدة تزيد على ثمانية أعوام، ثم ما لبثت الفكرة أن بُعثت من جديد، بتشكيل جديد وباسم جديد هو المجلس الأعلى للإعلام، الذي عقد نحو عشرين اجتماعاً ثم توقف. أما المرحلة الثانية، فقد بدأت بصدور أمرٍ سامٍ (سنة ١٩٨١م)، يقضي بإعادة تشكيل المجلس من جديد برئاسة وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز، وقد تأسست له لأول مرة أمانة عامة متفرغة مرتبطة بمكتب رئيسه، ولجنة تحضيرية من أربعة أعضاء، وهذا المجلس الضابط للعمل الإعلامي في البلاد يضطلع بوظائف كثيرة منها على سبيل المثال، اختصاص وضع سياسة إعلامية تحقق الأهداف العامة للمملكة العربية السعودية تنبثق من الشريعة الإسلامية كما جاء في وثائقه، والإشراف على جميع ما يقدم في الإذاعتين المسموعة والمرئية، وما تحويه الكتب والمجلات والصحف والأفلام

والتسجيلات والإعلانات وكل صلة بالإعلام الحكومي أو الخاص داخلياً وخارجياً ووسائل الاتصال بالجمهور، ويدخل أيضاً في اختصاصات المجلس كهيئة تخطيطية وإشرافية مستقلة الكثير من المهام مثل وضع سياسة التوعية العامة، وإقرار سياسة محتوى البرامج الإذاعية والتليفزيونية، ووضع سياسات الإعلام الخارجي والإشراف على برامجه، ودراسة موضوع الندوات الثقافية والإعلامية ذات الصلة بالمملكة، ودراسة القضايا التي تحال للمجلس من رئيس مجلس الوزراء، وفي ٢٥ شوال عام ١٤٠١هـ الموافق ٢٥ أغسطس/ آب ١٩٨١م أقر مجلس الإعلام الأعلى ـ بعد قرار تشكيله ـ اللائحة الداخلية للمجلس، التي تتكون من خمس عشرة مادة، توضح كيفية انعقاد المجلس، وإنشاء لجنة تحضيرية، والمهام المناطة بها، وتشكيل أمانة عامة للمجلس، ودورها ومسؤوليتها وجهازها إلى آخرها من مواد، ما يجعل من هذا المجلس سلطة تنفيذية وإشرافية في آن واحد، فقد عهدت إليه، مهمة وضع الخطوط العامة، والقواعد الأساسية للسياسة الإعلامية للمملكة، في المجالين الداخلي والخارجي، إلى جانب وضع اللوائح التنفيذية الخاصة بوسائل الإعلام، واقتراح الأنظمة التي يرى المجلس سنها، لوسائل الإعلام السعودية، وكذا الإشراف على ما تقدمه الإذاعة والتليفزيون ووسائل الاتصال الأخرى، من مواد وبرامج، سواء ما يتم إنتاجها في الداخل أو الخارج، على أن يكون ذلك في إطار الشريعة الإسلامية التي تعتمد عليها القيادة السياسية في المملكة نظاماً للحكم والإدارة، وبتشكيل هذا المجلس، فقد أصبحت الدورات الإذاعية لجميع إذاعات المملكة (البرنامج العام ـ إذاعة نداء الإسلام ـ إذاعة القرآن الكريم من الرياض وجدة ـ البرامج

الموجهة بغير اللغة العربية) تخضع للدراسة والتمحيص الدقيقين، ولا يتم تنفيذها إلا بعد إطلاع المجلس عليها ومناقشتها والموافقة عليها.

وفي ظل وجود المجلس الأعلى للإعلام، يتم وضع الأطر العامة للدورات الإذاعية المقبلة، حتى تكون عناصرها واضحة، في أذهان المخططين وواضعي الدورات الإذاعية، بحيث يتم الالتزام والتقيد بها، تمشياً مع عادات وتقاليد المجتمع السعودي، وتحقيقاً لطموحات المواطنين، وتقديم المعلومات الوافية لهم، التي تساعدهم على تفهم أبعاد التنمية الشاملة، وكيفية مواجهة مشاكلها، وجعلهم على صلة وثيقة بالأحداث التي تجري في العالم ومن حولهم.

ومما سبق وقد أوردته نصاً من الوثائق الأصلية الصدارة حينها، يتبين لنا الدور الكبير الذي يلعبه المجلس في ضبط الأداء الإعلامي، وما يترتب على ذلك من اختيار القيادات الإعلامية في كافة المؤسسات، ولم يكن اختيار وزير الداخلية للمجلس من باب الصدفة، فقد راعى التعيين أهمية شخص الرئيس وموقعه الأمني، وقد طبع ذلك أداء وعمل وسائل الإعلام المحلية بالطابع الأمني التوجيهي الرقابي، وأفسد هذا الأمر الحياة الإعلامية وأحالها لعالم الأمن والتوجس والمخاوف التي تنتهي، وإن كان بعض المخاوف مقبولاً ومفهوماً، فإن كثيراً منها لا مبرر له من الأساس، غاب الإعلام إذا في المشهد السعودي وحضر الأمن والأمنيون في وسائل الإعلام بشكل فرّغ العمل الصحفي من مضامينه الحقيقية، وأصبحنا أمام مؤسسات إعلامية متحفظة وجامدة لا تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام.

في العاصمة

كان قرار البقاء في الإعلام السعودي صعباً جدًّا، وأصعب منه قرار الرحيل، ولما انتقلت من الدمام إلى العمل في إذاعة وتليفزيون الرياض في نهاية عام ٢٠٠٢م، تحسنت الأمور قليلاً، وبعد أن كان العمل في محطة فرعية لا تحظى سوى بالفتات من المركز على شكل برامج صباحية وبعض الفقرات المشاركة، أصبح المرء في قلب الإذاعة والتليفزيون في العاصمة، قريباً من الشؤون الإدارية والمالية التي بيدها كل شيء، المكافآت الإضافية والترقيات التي لا يصل الكثير منها للعاملين في فروع الإذاعة والتليفزيون المنتشرة في أنحاء المملكة، وكنت قد نقلت للإذاعة بشكل رسمي بعد عام من تعييني في التليفزيون دون علمي، ولأسباب إدارية بحتة وتبادل وظائف بين الجهازين، لكن القرار نص على أن أستمر متعاوناً مع التليفزيون؛ ما جعلني أتنقل بين المبنييْن الضخميْن المتقابليْن في مقر الوزارة في الرياض، غريباً هنا، وغريباً هناك، مع هامش كبير للعمل أتيح في الرياض لم يكن موجوداً في السابق، ولمدة عام كامل تقريباً حدث تطور غريب، كنت أشغل مساحة واسعة جدًّا من البث في الجهازين الرسميين الإذاعة والتليفزيون، أقدم برنامج الصباح اليومي في

الإذاعة، وبرنامجين بنفس الاسم (آخر الأسبوع) في الإذاعة والتليفزيون، وأقرأ بعض النشرات الإخبارية التليفزيونية، إضافة إلى أعمال أخرى متفرقة هنا وهناك، وقد بعث لي أحد المتابعين الجيدين - وهم قلّة - رسالة ظريفة ذات يوم مفادها: هل أصبح لدى وزارة الإعلام في السعودية مذيع واحد فقط اسمه الظفيري؟ تأملت الرسالة مليًّا وشغلت تفكيري فترة من الزمن، ورغم بعض الثناء والمديح الذي تضمنته، إلا أنها أثارت أسئلة كثيرة في داخلي، وعلى رأسها سؤال حول انتقالي من المحطة الفرعية في الدمام إلى الرياض، هل كان بحثاً عن مزيد من الظهور؟ ما أدى إلى استفزاز هذا المتابع، كما استفز بعض الزملاء بدرجة أكبر؟ ولماذا يسيطر شعور عارم بعدم الرضا رغم كل هذه الفرص المتاحة في جهازين إعلاميين؟

كانت المنطقة تغلي من حولنا، وطبول الحرب الأمريكية تُدق على الحدود، العراق هو المحطة الثانية لجنون المحافظين الجدد بعد غزو أفغانستان، ولم تدم حالة الانتظار والترقب طويلاً حتى بدأت الحملة الأمريكية البريطانية على بغداد، كنت قبل ذلك أقدم برنامجاً منوعاً على التليفزيون كل يوم جمعة اسمه آخر الأسبوع، والبرنامج لا علاقة له بالسياسة وهمومها من قريب أو بعيد، ويوم قرر المسؤولون في التليفزيون إيقاف البرامج الترفيهية والمنوعة ومواكبة الحدث الجلل بالحد الأدنى على الأقل، اقترحت على مدير عام القناة الأولى في ذلك الوقت «عبدالرحمن الهزاع» أن نطوّع البرنامج مع الأجواء المحتقنة ونجعله مواكباً لتغطية الغزو الأمريكي، وكان الهزاع منذ اليوم الأول الذي دخلت

فيه تليفزيون الرياض رجلاً فاضلاً ومسؤولاً ودوداً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، تعامل معي - والصديق العزيز محمد العنزي مخرج البرنامج ورفيق المشوار الطويل من الدمام حتى الرياض - بطريقة استثنائية، وقَبِل في بدايات البرنامج أن يكون ضيفاً على واحدة من الحلقات ويتلقى انتقادات المشاهدين على الهواء مباشرة، ربما كانت المرة الأولى التي يظهر مدير التليفزيون ويستمع إلى ملاحظات المشاهدين حول (غصب واحد) الاسم الذي كان يطلقه السعوديون على قناتهم الأولى، وقد سمع يومها نقداً جاداً حول البرامج الدينية ونشرات الأخبار الطويلة المخصص معظمها لأخبار استقبال المسؤولين وقائمة الأمراء التي لا تنتهي، وتفاعل مع ذلك بصدر رحب لاقى قبولاً واسعاً من جمهور المشاهدين؛ ما دفع أحد الزملاء للتعليق بأن فريقنا (العنزي وأنا) مدعومٌ من ولي العهد آنذاك الأمير عبدالله، وأننا جزء من المشروع الإصلاحي الذي كان مطروحاً في تلك الأيام، ولم يكن كلامه صحيحاً على الإطلاق، المسألة مجرد اجتهاد خالص منا وجد طريقه في ظل الضبابية التي كانت تحكم العمل الإعلامي في البلد.

وجد اقتراحي بمواكبة الأحداث قبولاً لدى المدير العام وتم تحويل البرنامج إلى موعد جديد ليلة الجمعة، في تلك الليلة استضفت سليمان العقيلي نائب رئيس التحرير في جريدة الوطن ومدير مكتبها في الرياض، ولم أجد ما أسترشد به في الحوار، لا يوجد ما يمكن القول بأنه السياسة أو الإطار الذي يوجه خطابنا الإعلامي في تغطية غزو العراق، باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه؛ فالتقطت تصريحاً لوزير الخارجية سعود

الفيصل يتحدث فيه بسلبية عن الغزو وعن موقف المملكة المناهض لهذه الحرب، وكان هذا موقفي وانطباعي وموقف الجمهور السعودي بشكل عام تجاه غزو بلد عربي رغم سنوات الجفاء الطويلة مع النظام العراقي بسبب غزوه الكويت وحرب تحريرها، ويبدو أنني اندفعت كثيراً في إدانة الفعل الأمريكي الشائن عبر الأسئلة الموجهة للضيف، وكان موقف الضيف على نفس الخط في الإدانة، تحدثنا مطولا عن العروبة وموقف المملكة الذي يدين الغزو الأمريكي، وأفضنا كذلك في الموقف الشعبي السعودي المستنكر والكاره، أعترف أني انتشيت كثيراً في تلك الحلقة، كانت المرة الأولى التي أتناول فيها شأناً سياسيًّا صرفاً بهذا الشكل، وأن تظهر ميولي الحقيقية في موضوع النقاش المثار، ولا أذكر الآن متى وردتني مكالمة المدير العام للقناة بالضبط، بعد نهاية البرنامج مباشرة أو في اليوم الذي يليه، عبر الهاتف نقل لي استياء وكيل الوزارة السيد «طارق ريري»، دون أن يذكر التفاصيل، وطلب مني الحضور في اليوم الثاني لمقابلته، شعرت بالصدمة للوهلة الأولى، توقعت أنه سينقل لي إعجاب المسؤولين بما جرى، لكن الأمور لا تسير دائماً وفق ما نتوقع أو نتمنى.

اجتمعنا في مكتب الوكيل المساعد لشؤون التليفزيون السيد طارق ريري، الرجل الذي سيرتبط اسمه بتحولات كبيرة حدثت لاحقاً، كان مدير التليفزيون عبدالرحمن الهزاع والزميلان مزيد السبيعي وعبدالعزيز العيد، وأنا في مكتب وكيل الوزارة، لم يتحدث كثيراً في تلك الدقائق، أبدى امتعاضه الشديد مني تلميحاً وتصريحاً دون توضيح الأسباب،

وطلب منا جميعاً الانتقال إلى مكتب الوزير في الدور الخامس، هذه المرة الأولى التي أذهب فيها للطابق العلوي، كان بمثابة السماء السابعة للعاملين في وزارة الإعلام في تلك الأيام، لا يتاح للكثيرين مقابلة الوزير الدكتور فؤاد فارسي، ثلاثة أعوام في وزارة الإعلام لم ألتقِ هذا الرجل مطلقاً، كنت أشاهد صوره في الصحافة والتليفزيون فقط، وكان مدير مكتبه السيد محمد صباغ الآمر الناهي في الوزارة، تبدأ الحياة وتنتهي في التليفزيون عند مكتبه الذي يقابلك بمجرد خروجك من باب المصعد، رجل في السبعينيات من العمر، يحكي العاملون كثيراً عن أثره الكبير ودوره الفاعل في التعيينات والترقيات والسفرات، وتحديد ما يكون من شؤون الوزارة وما لا يكون، أما الوزير فارسي الذي لا يتحدث أبداً لوسائل الإعلام، ويكتفي بنقل بيان مجلس الوزراء مساء كل اثنين، فلا يُعرف عنه الكثير، وانطباعي عنه قبل لقائه سلبيٌ للغاية، هيئته لا تتغير كما هو خطابه وظهوره وأوضاع جهازي الإذاعة والتليفزيون الذي يرأسهما، دخلت مجموعتنا يتقدمها وكيل الوزارة دون انتظار، ورغم المسافة القصيرة بين الطابقين الرابع والخامس التي لم تستغرق سوى دقائق معدودة، فإن أطول حوار داخلي دار بيني وبين نفسي، تركيزي وتدقيقي على كل تفصيل صغير في الأشخاص والمكان، لم يحل دون التحليق بعيداً خارج حدود المكان، كنت شارد الذهن بشكل كبير، قدمت البارحة حلقة مفصلية في حياتي التليفزيونية القصيرة، خرجت منها سعيداً منتشياً، ووجدت من في الخارج على غير هذه الحال، الهاتف الذي طلبني تحدث عن انزعاج ولقاء بوكيل الوزارة، وها نحن الآن نتجه إلى مكتب الوزير مع زميلين من المذيعين فقط!، ماذا

يحدث الآن وماذا يريد الوزير مني أو منا؟ من محطة تليفزيون الدمام واستديو الإذاعة في المبنى المستأجر في حي سكني متواضع، إلى قلب العاصمة المكتظة بالسكان والمسؤولين والأحداث، شريط الأحداث السابقة يمر سريعاً الآن، من مشاكلنا ومراتبنا الصغيرة في المحطة الفرعية، من ذلك الدفء الجميل برعاية أنبل مدير عرفته في حياتي المذيع والصديق سعيد اليامي، الذي قاتل من أجل بقائي في الدمام بقربه لحاجة العمل وحاجته كصديق، إلى الممر الذي يصل بين السماء والأرض، بين مذيع يتلمس خطواته الأولى في هذه الحياة الصحفية الجديدة وبين القيادات الإعلامية الرسمية العليا في البلد، هنا مدير عام التليفزيون السعودي ووكيل الوزارة لشؤون التليفزيون ومكتب الوزير الفخم، وقبل لحظة الدخول على «معاليه»، سرى شعور خافت من السعادة في عروقي، مهما سيحدث في هذا الاجتماع غير المرتقب، يبقى أن المرء يقف الآن في حضرة كبار الصنّاع، من هنا ينهمر المطر وتأتي القرارات والتوجيهات والتعليمات، وفي هذا العلوّ يكتب بعض الناس على البعض الآخر ما يشاهدون ويسمعون ويقرؤون، وعبر هذه النافذة تمر العلاقة بين المالك والمملوك في بلادنا، والصحفي الذي لم يكمل عامه الرابع ـ قادماً من بلاده البعيدة إلى بلاده القديمة الجديدة ـ بات على مقربة كبيرة من هذا الارتفاع.

كان الوزير حاسر الرأس، استقبلنا بترحاب وطلب منا مباشرة الجلوس مقابله على شكل نصف دائرة. طريقته باللباس وطلبه الجلوس ومباشرة الكلام دون مقدمات أوحت لنا بأمر جلل، تحدث الوزير مطولاً عن الأوضاع في المنطقة وعن

غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، وكان الحديث عامًّا بعض الشيء لا أذكر الآن الكثير من تفاصيله، اللافت أنه لم ينتقدني أو يوبخني على حلقة البارحة كما توقعت، أشار لي بشكل سريع في خضم حديثه، وكان يناديني باسم «سعد»، صححت له في المرة الأولى، لكني لم أفعل بعد ذلك حين كرر نفس الخطأ، إذا ناداك الوزير باسم ما يجب أن يكون ذلك هو اسمك!، ما أهمية اسمك من الأساس طالما أنك تقابل الوزير وجهاً لوجه، يتحدث معك وتتحدث معه دون حواجز!، سأله الزملاء بعض الأسئلة وعلقوا على كلامه، ولاحظت مدى اللطف البالغ التي يتمتع به الدكتور فؤاد فارسي، روحه مرحة وحديثه ممتع على خلاف توقعاتي السابقة، دفعني ذلك لسؤاله مباشرة عن حلقة البارحة التي تسببت بإزعاج الوكيل كما وردني، وكما اتضح ذلك في سلوكه لما كنا في مكتبه، كانت إجابة الوزير صادمة لي ولمن معي، أثنى على عملي كثيراً وأشاد بي، تماديت وسألته عن موقف المملكة من غزو العراق، وعن الخطاب الإعلامي اللازم لمواكبة هذا الحدث، وأظن أن لطف الوزير ودماثة خلقه، دفعاني لشرح الموقف الشعبي تجاه هذه الحرب وعن تصريح وزير الخارجية الذي أدان عملية الغزو الأمريكي، وكيف أن هذا الأمر يسمح لنا بتشديد الخطاب ضد الغزو واستيعاب الغضب الشعبي العام عير تغطيتنا الإعلامية، وأثناء حديثي غير المنضبط على ما يبدو، لمحت استياء وكيل الوزارة واستهجانه لوقاحتي في التحدث بهذه الأريحية مع معالي الوزير! فالرجل من أبناء مدرسة لا علاقة لها بالانفتاح والحرية، وكان هذا سبباً لأزماته اللاحقة معي ومع عملي الذي بدأ شيئاً فشيئاً بالسخونة والتحول من مرحلة السطحية

والشؤون المحلية الصرفة إلى عالم آخر، قبل الوزير ما قلته وأكد عليه، وأعاد ثناءه عليّ بشكل واضح لا لبس فيه؛ ما تسبب بمزيد من الانزعاج للوكيل، وبسعادة كبيرة لدى المدير الذي شعر بارتياح كما أظن من هذا الموقف الإيجابي للوزير.

توقف البرنامج ولم يسند لي شيء يذكر بعد هذا اللقاء، ورغم أن ما حدث يمثل مكسباً كبيراً من حيث الشكل؛ فقد عزز مكانتي كمذيع يطلب الوزير وجوده في اجتماع يحضره مسؤولان كبيران في التليفزيون ومذيعان آخران فقط، إلا أنه بدا واضحاً عدم الرغبة بوجود البرنامج أو بمشاركتي الموسعة في برامج أخرى تتعلق بالشأن السياسي. ينتمي وزير الإعلام في تلك الفترة فؤاد الفارسي إلى المدرسة المحافظة التي لا تجازف بالانفتاح، ووكيل الوزارة أشد محافظةً وانتماءً منه لتلك المدرسة، إضافة لطبيعته السلطوية الطاغية، لم يطلني الإيقاف عن التقديم أو ما شابهه، لكن الأمور بشكل عام أخذت مسارات أخرى لا أعرفها، وكانت قناة العربية الإخبارية التابعة لمجموعة الـ«إم بي سي»، قد انطلقت للتو، وبدأ بثها الإخباري المنافس لقناتي الجزيرة وأبوظبي المهمتين والمؤثرتين في المشهد العربي، وأقر التليفزيون السعودي بعض الساعات الإخبارية التي تواكب الحدث، وغالباً ما كنا ننقل الصور الحية من العربية وأبو ظبي ولا ننقل أبداً بث قناة الجزيرة، أسند إليّ ضمن جدول المذيعين تقديم بعض تلك الساعات في وقت متأخر من الليل، وأذكر تماماً الساعة الأولى التي كنت أنقل فيها قصف بغداد على الهواء مباشرة، الصور التي نبثها من قناة العربية والتعليق من مذيع الاستديو في القناة الأولى، لم أكن أملك الخبرة الكافية للتفصيل في

الأحداث في تلك اللحظات العصيبة، لكن عاطفتي الجياشة دفعتني للاسترسال في التعليق بقوة ودون انقطاع لفترة طويلة، تكررت عبارة «جسد بغداد» و«الصواريخ الأمريكية» كثيراً في حديثي؛ ما دفع الزميل منفذ الفترة لممازحتي بعد التغطية قائلاً: إن المشهد الذي تابعه والتعليق المصاحب بدا وكأننا في قناة الجزيرة!، وما قاله ممازحة كان حلماً وإيماناً بالنسبة لي. الجزيرة في تلك الفترة كانت صوت العرب، وأثناء تعليقي كان عبدالناصر وروح الأمة العربية العظيمة وأشعار مظفر النواب ماثلة أمامي، كانت حرقتي بالغة على ما أشاهده، ووجد ما أؤمن به طريقه إلى الشاشة دون إعاقة هذه المرة، عدت لشقتي في حي الازدهار مطلع الفجر بعد نهاية ورديتي، وكنت قد بكيت في الطريق الممتد من التليفزيون إلى المنزل، طريق الملك فهد في تلك الأوقات يسمح هدوؤه واتساع مساراته لعاطفتك أن تبوح بمكنوناتها دون إزعاج، وقد فعلت كما فعل ملايين العرب الموجوعون في تلك الساعة الحزينة من عمر الأمة.

الطريق إلى بغداد

سنوات الملل الإعلامي والضجر بعالم المنوعات والدعاية شارفت على الانتهاء، بدأت الأحداث تأخذ مسارها الصحيح دون قصد، سقطت بغداد بعد أن انهالت عليها أمطار الغضب والكذب الأمريكي، كان مشهد إسقاط تمثال الرئيس العراقي صدام حسين وسط العاصمة مؤثراً جدًّا، سقطت أشياء كثيرة مع سقوط التمثال، منها على سبيل المثال مرحلة من عمري قضيتها تائهاً هنا وهناك دون بوصلة، يعمل المذيع في عالمنا الإعلامي الرسمي العربي دون هدف واضح، والمذيع في حالتنا غير الصحفي الذي تحكم عمله بعض الأفكار والانتماءات والتوجهات، إنه أشبه بعارض أزياء يرتدي ما يختاره المصممون، مطلوب منه أن يظهر في أبهى حلة دون أن يفكر هو أو غيره بما في داخله، المذيعون غالباً حالة من الخواء لا تنتهي، يستحسن الناس مظهرهم وحديثهم فقط، دون أن يتركوا أثراً من بعدهم، يحكي لي العاملون القدماء في التليفزيون حكايات عجيبة عن أوائل المذيعين في التليفزيون السعودي، وكيف أن صفًّا طويلاً من السيارات يسير خلف غالب كامل أو ماجد الشبل في شوارع الرياض فقط لرؤيتهم على الطبيعة، كان المذيع في تلك الأيام أشبه بكائن

فضائي لا يتخيل الناس أنه يمشي على الأرض، وكونه يأكل ويشرب ويتزوج ويراجع الإدارات الحكومية كما يفعل البشر، لكن عالم الانبهار بالمذيع قد ولىّ، وبقينا نحن المذيعون الجدد في عالم الفضائيات والاختيارات المفتوحة مجرد أصنام يعرضها التليفزيون المحلي، دون أن تحظى بقبول أحد، وما بقي من جمهور يتابع التليفزيون السعودي في أيامنا، وما نقدمه من أعمال لا يرقى لأدنى طموح، لمن كان لديه طموح من الأساس.

ومرة أخرى يأتي اتصال من مكتب وكيل الوزارة، لكن هذه المرة من المبنى المقابل لمبنى التليفزيون، تريد الإذاعة أن تبعث مراسلاً مع المستشفى الميداني السعودي الإغاثي المتوجه إلى بغداد، والسيد محمد المنصور الوكيل المساعد لشؤون الإذاعة كان يقدر عملي وأدائي منذ أيام التدريب، وهو من سعى لقرار الوزير بنقلي إلى استديو الإذاعة في الدمام، بعد أن فاجأه تعييني في تليفزيون الدمام إثر انتهائنا من الدورة التدريبية التي قبلتنا نحن الأربعة، سلطان الحارثي وخالد البيشي وعمر الرويلي وأنا، وعُيِّن الثلاثة في إذاعة الرياض، وأوصى من أشرف على تدريبنا ليوم واحد في التليفزيون بقبولي هناك، وتم ذلك في محطة تليفزيون الدمام لوجود شاغر وظيفي؛ الأمر الذي لم يعجب الوكيل والإذاعة التي بذلت الجهد الأكبر في تدريبنا وتطويرنا، إضافة إلى وجود وظيفة خاصة بالإذاعة يشغلها الزميل سعيد اليامي في تليفزيون الدمام والمدير الحالي له، فكانت المبادلة بين الوظيفتين التي نص عليها قرار الوزير بعد عام من تعييني، واستمر موقف الوكيل الإيجابي من عملي حتى بعد انتقالي

وعودتي من جديد إلى الرياض، وكان هذا سبباً في ترشيحي للتغطية الميدانية من بغداد، وربما لعدم وجود خيارات كثيرة في إيجاد من يقبل الذهاب إلى العراق في تلك الظروف الصعبة، كانت رحلة مرهقة استمرت يومين دون راحة، من المطار العسكري في الرياض إلى عرعر المدينة المحاذية للعراق، ومن هناك توجهت قافلة تضم فرقة عسكرية مظلية مرافقة للمستشفى الميداني، وبعض الصحفيين أذكر منهم جميل الذيابي مراسل جريدة الحياة في ذلك الوقت ورئيس تحرير طبعتها السعودية الحالي، زودني القسم الهندسي بجهاز «الناغرا»، وهو مسجل إذاعي من طراز قديم لا يستخدمه أحد في تلك الأيام سوى إذاعتنا، ولم أزود بهاتف اتصال فضائي كما كان يجب، حيث الهواتف المحمولة التي تعمل على الشبكات العادية لا يمكن استخدامها في العراق، وبعد أن زودت الإذاعة برسائل مباشرة من المنفذ الحدودي عبر هاتفي الخاص أولاً، وباستعارة هاتف الثريا من بعض العسكريين المسؤولين عن قافلتنا المتجهة إلى بغداد، كانت آخر رسالة من على مشارف مدينة كربلاء، حيث توافد ملايين العراقيين الشيعة للمدينة المقدسة حسب المعتقدات الشيعية، وبعد ذلك انقطعت علاقتي بالإذاعة تماماً، ووجدت نفسي في جامعة المستنصرية في بغداد، حيث مقر إقامة بعثتنا دون عمل، توجهت أكثر من مرة من باب الفضول إلى فندق فلسطين، حيث يقيم الإعلاميون المحترفون، وشاهدت فرق العمل الكبيرة تنقل ساعة بساعة الأحداث من العاصمة الملتهبة، وتحسرت كثيراً على وضعي الشاذ والغريب، صحفي ترسله مؤسسته دون أن تخطط أو تتوقع ما سيقوم به، ودون أن تمنحه ما يعينه على أداء المهمة، كانت تجربة مصيرية لي،

وعرضت خدماتي على فريق التليفزيون المرافق لنا، وقبلوا أن أقوم بإنجاز تقريرين عن المستشفى والمرضى الذين يتوافدون إليه، نال استحسان المحررين، لكنه على ما يبدو توقف عند هذا الحد، واعتبر عملي تطفلاً على عمل الآخرين، فأنا موظف رسمي في الإذاعة ومجرد متعاون مع التليفزيون، والمذيع الرسمي للتليفزيون المتواجد مع الفريق هو الذي تقع عليه مهمة الظهور في المقابلات الإخبارية والتقارير المسجلة من هناك، أمضيت بقية الوقت بين فندق فلسطين أشاهد الصحفيين والمراسلين العرب والأجانب، وأتأمل الحشود من المواطنين العراقيين الذين تجمعوا حول الفندق لأسباب مختلفة، كان كل ما جرى بهذه الرحلة الصعبة والمحبطة كفيلاً بإحداث تحولات جذرية في تفكيري ومساري المهني لاحقاً، وعدت إلى الرياض بعد أسبوعين تقريباً أحمل في داخلي هموماً كبيرة، وآمالاً أكبر.

فورة الإعلام الصحفي

أدى غزو العراق في عام ٢٠٠٣م، إلى هزة كبيرة في المنطقة العربية على الصعيد السياسي والفكري والأخلاقي والإنساني، ولم يكن عالم الإعلام بمنأى عن هذه الاهتزازات التي غيرت كثيراً في واقع هذه المنطقة، في اليوم الثالث من شهر آذار مارس عام ٢٠٠٣م، انطلقت قناة العربية الإخبارية التي تبث من مدينة دبي للإعلام في دولة الإمارات العربية، وتحديداً قبل سبعة عشر يوماً من غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق الذي كان في العشرين من الشهر نفسه. القناة أطلقتها مجموعة ال«إم بي سي (mbc)»، المملوكة لرجل الأعمال السعودي وليد الإبراهيم شقيق الجوهرة بنت إبراهيم بن عبد العزيز آل إبراهيم أرملة الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، وخال الأمير عبدالعزيز بن فهد وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء آنذاك، والرجل حسب التعريف الوارد في موقع ويكيبيديا «أحد صناع الإعلام العربي الحديث، وإعلامي درس وتأهل في هذا المجال في الولايات المتحدة، وأسس في بداية الثمانينيات شركة آرا للإنتاج وتطورت أعماله في هذا المجال بشكل كبير، إلى أن قاد مجموعة mbc منذ بدايتها المتواضعة عام ١٩٩١م، وكان واضحاً أن إطلاق القناة

جاء لمواجهة النفوذ الإعلامي والهيمنة الواسعة لقناة الجزيرة في الساحتين العربية والدولية، التي قلبت أمور وقواعد العمل الإعلامي المتعارف عليها في البلدان العربية، بعد هذا التاريخ الذي انطلقت فيه قناة العربية بعام واحد، أطلقت الولايات المتحدة الأمريكية في الرابع عشر من شهر شباط فبراير قناة الحرة الناطقة باللغة العربية، وهي تبث من ولاية فرجينيا وتوجه برامجها للمشاهدين العرب، ولا تبث تدخل الولايات المتحدة الأمريكية حسبما تنص عليه القوانين الأمريكية، كونها قناة أنشئت بغرض الدعاية السياسية، كما تركز وتكثف اهتمامها بالشأن العراقي عبر قناة فرعية هي «الحرة عراق»، وجاءت القناة أيضاً كردّة فعل على قناة الجزيرة المؤثرة في تغطيتها للغزو العراقي، فقد استشعر الأمريكيون خطورة الخطاب الإعلامي للجزيرة على صورتها في العالم العربي، وأرادوا مواجهة هذا الأمر بخطاب إعلامي أمريكي يوجه للمشاهدين العرب عبر قناة يتحكمون بمضامينها ورسائلها؛ وهو ما لم يكتب له النجاح على نطاق واسع كما أثبتت السنوات اللاحقة. بعد ذلك انهمر سيل القنوات الإخبارية التي انطلقت من بلدان عربية عدة وأخرى من الدول ذات النفوذ في المنطقة، في مارس/ آذار ٢٠٠٨م، أطلق تليفزيون «بي بي سي» قناته الإخبارية التليفزيونية العربية الموجهة للمنطقة، بعد أن تعثر المشروع أكثر من مرة في عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٧م، وكان لهذا الحدث أثره الكبير على المشهد الإعلامي الذي توقع تأثيراً وتغييراً كبيراً بميلاد القناة الجديدة، فهيئة الإذاعة البريطانية BBC لها تاريخ عريق في البلاد العربية عبر إذاعتها الرائدة على الصعيد الإخباري، والتجربة التليفزيونية المتعثرة في أواسط التسعينيات نتج عنها إطلاق الجزيرة بمعظم الكادر

الفني والتحريري الذي وجد نفسه بلا عمل بعد توقف القناة، إثر فسخ العقد المبرم بين الجهة المالكة لمجموعة أوربت السعودية والهيئة، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، على الأقل من زاوية التوقعات الكبرى لدى الجمهور العربي والعاملين في وسائل الإعلام، المشاكل التمويلية وسوء اختيار الطاقم أثرا بشكل سلبي على عمل القناة المستمرة حتى يومنا هذا، دون أن تحظى بنسبة مشاهدين تليق بسمعتها واسمها.

ولم يقتصر الأمر على القوتين الاستعماريتين الرئيسيتين الولايات المتحدة وبريطانيا، روسيا أطلقت قناتها الموجهة للجمهور العربي (روسيا اليوم) وكذلك فعلت الصين وتركيا وإيران وفرنسا وألمانيا والإتحاد الأوروبي، مما يعزز من أهمية المنطقة العربية كأرض نفوذ كبير تتنازع عليها القوى الدولية بشكل واضح، ويشكل الإعلام سلاحاً فعالاً ومؤثراً في هذه الحرب الضروس بين الدول، فيما الإعلام المحلي لدول المنطقة يغط في سبات عميق!.

في السعودية كنا في حالة ترقب كبيرة ونحن نتابع الفضاء العربي وولادة القنوات يوماً بعد يوم، كان كل شيء في البلد يستدعي نهضة إعلامية تواكب الشأن الداخلي وما يحيط بنا من أحداث، واقع الإعلام الرسمي كان محبطاً بدرجة كبيرة، والبون الشاسع بين آمال الناس وتطلعاتهم تجاه وسائلهم الإعلامية كان قد دفع بإلحاح كبير تجاه تغيير ما في طبيعة عمل هذه الأجهزة، في مطلع الألفية ظهرت جريدة الوطن من منطقة عسير في جنوب المملكة، رأس تحريرها في مرحلة الانطلاق قينان الغامدي، وانتهجت خطاً تحريريًّا وفكريًّا مغايراً وصادماً في المجتمع السعودي، الجرأة

والانفتاح في معالجة القضايا الاجتماعية اللذين اتسمت بهما الجريدة جعل الناس تقبل عليها بشكل كبير، وتصدرت الجريدة المشهد الصحافي في فترة قياسية، وقد أثرت الجريدة بشكل أو بآخر على عمل الصحف اليومية، أصبح التنافس شديداً بينها لكسب انتباه ومتابعة القارئ المحلي، وأظهرت الحالة تعطش الساحة لعمل صحفي مهني يشبع حاجة المتابع ويلبي متطلباته، لكن ما حدث في الصحافة لم يطل الإذاعة والتليفزيون اللذين تشرف عليهما وزارة الإعلام بشكل كامل ومباشر. كنا نغرد في الجهازين وحدنا بعيداً عن الجمهور ووسائل الإعلام الأخرى، أهم ما نقدمه يقتصر على قرارات التعيين والترقيات لكبار موظفي الدولة الصادرة عن مجلس الوزراء مساء كل اثنين، وبعض برامج الإفتاء التي يقدمها كبار المشايخ من أعضاء هيئة كبار العلماء أو من خارجها، شرط أن يكونوا مقبولين من الدولة وأجهزتها الرسمية، بخلاف ذلك لا شيء يذكر، وكان من الطريف أن يسألك أحد زملائك في العمل عن مكان عملك، رغم أنك تظهر على الشاشة التي تعمل فيها أنت وهو على حد سواء.

قناة الإخبارية..
خارج الزمن الإعلامي

حالة الانتظار لم تدم طويلاً هذه المرة وعلى غير المعتاد، ما كنا نشعر به من داخل وسائل الإعلام الرسمية، وما يتحدث به الجمهور السعودي على نطاق واسع، كان يصل إلى القيادة السياسية في البلد، صدرت التوجيهات لوزارة الإعلام بإطلاق قناة إخبارية متخصصة، قيل يومها إنها ستنافس الجزيرة والعربية، أسندت إلى وكيل الوزارة المساعد لشؤون التليفزيون طارق ريري مهمة الإشراف المباشر على إطلاق القناة الإخبارية الجديدة، وقد كان الرجل نفسه المسؤول الأول عن قنوات التليفزيون السعودي الثلاث، القناة الأولى الرسمية والقناة الثانية الناطقة باللغة الإنجليزية والقناة الرياضية الثالثة التي أطلقت قبل ذلك بوقت قريب، ودون الخوض في تفاصيل ما جرى في البداية، إلا أن العنوان الرئيس لهذا الحدث المهم يفيد بما يأتي: مرحلة جديدة من عمر الإعلام الرسمي دشنت بعقلية قديمة، وهي العقلية المسؤولة عن النتائج السابقة التي كان عليها الحال في التليفزيون السعودي، وبهذا تكون القيادة السياسية ارتكبت خطأين كبيرين دفع الإعلام ثمنهما لاحقاً وما زال، اعتماد العهد الجديد بنفس الأشخاص والآليات المعمول بها في

السابق، وإن أردنا إنصاف القائمين بأشخاصهم فعلينا أن نتذكر جيداً أنهم محكومون بأنظمة إدارية مقيدة لا تسمح لهم بتنفيذ رؤى إعلامية حديثة، إن كان هناك ثمة رؤى من الأساس، أي أن العهد الجديد كان بالمنهج القديم.

الأخبار والشائعات تملأ الممرات في الإذاعة والتليفزيون، يتناقل الموظفون أخباراً غير دقيقة عن القناة الجديدة وطاقمها وأهدافها، ولم يبقَ أحد دون عرض تلقاه للعمل في تلك المحطة الموعودة، رغم أن شيئاً من هذا لم يحدث على أرض الواقع بعد، لكن الناس يمنون أنفسهم بشيء جديد ومغاير يكسر رتابة الحياة اليومية في ردهات الإذاعة والتليفزيون، ويبثون الإشاعات كما يحدث دائماً في وسائل الإعلام.

قبل أشهر حصلت على ترقيتي الإدارية الأولى في حياتي الوظيفية، حيث تم ترفيعي إلى الدرجة السابعة بعد أن كنت في الدرجة التي تسبقها، الرحيل إلى الرياض آتى أكله باكراً، فقد حصلت على الترقية قبل موعدها الطبيعي بستة أشهر، والترقيات تعتمد على نظام النقاط الذي يتجمع في رصيد الموظف نتيجة الدورات التي يحصل عليها مقارنة بغيره، وكنت قد أنهيت دورة في المعهد الدبلوماسي في وزارة الرياض بتقدير امتياز لمدة أربعة أشهر، وساعدت هذه الدورة ونتيجتها على تقديمي عن زملائي المتساوين معي في عدد سنوات الخبرة، لكن الأشياء الجميلة لا تكتمل كما هي العادة، كنت قد وضعت طلباً في النموذج الخاص بالترقية يحدد التليفزيون كجهة أرغب في الانتقال إليها في حال تمت الترقية، حسمت أمري بترك الإذاعة والانتقال إلى التليفزيون بشكل رسمي ونهائي؛ فالعمل في الجهتين متعب وممل

للغاية، إضافة إلى أن الإذاعة والمسؤولين عنها يبدون الامتعاض من تعاون المذيعين مع التليفزيون. هناك جفاء بين الجهتين ينعكس سلباً على العملاء المزدوجين، التسمية التي تطلق على المذيعين المتعاونين مع التليفزيون، لكن الترقية جاءت صادمة، حيث نص القرار على ترقيتي في نفس الجهة التي أعمل بها وهي الإذاعة، والوظيفة الشاغرة على الدرجة الجديدة تم تحويلها إلى ابنة أحد كبار المسؤولين في الوزارة، رغم أن عملها لا يتناسب مع طبيعة الوظيفة التي رُقيت لها، وهي وظيفة مذيع ومهامها واضحة ومحددة لا تنطبق على موظفة تعمل في قسم الإعداد!

لم أقبل الترقية وقدمت طلباً برفضها.. توترت الأجواء في الإذاعة نتيجة هذا الموقف المستغرب من وجهة نظر المسؤولين فيها، كيف يرفض موظف ترقية يحصل عليها في نفس مقر عمله؟! كنت قد عقدت العزم على الانتقال نهائياً إلى التليفزيون، الأشهر التي أمضيتها في إذاعة الرياض بعد ذلك كانت أشبه بحياة زوجين منفصلين في بيت واحد، وفي الربع الأخير من عام ٢٠٠٣م، وجدت نفسي في مكتب محمد باريان الذي كلف بالإشراف على قناة الإخبارية، لا أذكر إن كان قد استدعاني أم قادتني أقدامي إليه، تحدثت مع الرجل مطولاً وأبدى إعجابه الكبير بأدائي ورغبته بانضمامي إلى الإخبارية، كان لدى القائمين على القناة توجه باستقطاب مذيعين جدد لم يسبق لهم الظهور على شاشة القناة الأولى، وكنت من المرشحين؛ نظراً لكوني لا أعمل بشكل رسمي في القناة الأولى، ومن الوجوه الجديدة نسبياً على التليفزيون، أصبحنا بعد ذلك نجتمع في مكتب محمد باريان، وكان

محمد قد عاد مؤخراً من بريطانيا بعد حصوله على الدكتوراه في الإعلام، وهو رجل دمث الأخلاق يحسن التعامل والتحدث مع الناس، تحول المكتب في إدارة الأخبار إلى خلية عمل صغيرة في البدايات، مئات طلبات العمل كانت تجتمع فوق طاولته، وقد وجدت الفرصة لإضافة بعض الملفات بعد أن انتبهت لعملية تمرير أبناء وأقارب الموظفين والمسؤولين في الوزارة، واجهت القناة وإدارتها مشاكل كثيرة تعرفت على بعضها نتيجة وجودي مع المدير الجديد. لم يكن هناك كادر وظيفي للفريق الذي يجب أن يعمل على إطلاق القناة، مجرد عقود مؤقتة براتب مقطوع تم إعدادها لاستقبال الموظفين الجدد، ونظراً لمحدودية العائد المادي المخصص للتعاقد الخارجي، استعانت القناة بمحدودي الكفاءة من الدول العربية، وهم أولئك الذين قبلوا بهذه العروض الوظيفية الهزيلة، وممن لم تقبلهم القنوات الأخرى كالعربية وغيرها.

وقعت وزارة الإعلام عقداً مع قناة العربية لتدريب طاقم قناة الإخبارية، وكان العقد تحديداً مع إحدى الشركات ضمن مجموعة الـ«إم بي سي»، ويشمل التدريب والتأسيس والإشراف على عملية الانطلاق، بدأت بعد ذلك مرحلة إعداد العاملين للانتقال إلى دبي لحضور دورة تدريبية مكثفة في قناة العربية قبل انطلاقة القناة، حدثت أمور كثيرة قبل سفرنا إلى دبي منها أن قراراً صدر من الوزير ينص على نقلي بشكل رسمي إلى التليفزيون لحاجة قناة الإخبارية التي ستنطلق قريباً، وجدت في تلك الليلة ما أتفاخر به على الأصدقاء في مقهى المنصور في الرياض، قلت مازحاً إنني الوحيد الذي نقل من

التليفزيون وإليه بقرار وزاري، ولم أكن أدرك أن قراراً وزارياً آخر ومهمًّا تخبئه الأقدار في القريب العاجل، المهم في الموضوع أن استشارة الصديق والأخ والمستشار الصدوق والمذيع عبدالله المسواري، الذي كان راعياً مثاليًّا لكل قراراتي التي اتخذتها منذ التقيته في الرياض وحتى اليوم، جاءت في مكانها الصحيح، وكان سعيداً مزهوًّا بذلك الأمر كما كنت وأكثر، غادرنا إلى دبي المدينة الساحرة بعد ذلك بوقت قصير، كنا مجموعة كبيرة جدًّا من الشباب السعوديين الذين يعول عليهم في تدشين مرحلة جديدة من عمر الإعلام الرسمي السعودي، عشرات الفنيين والمخرجين والفنيين يسكنون في فندق «ايبيس» ذي النجمات الثلاث في مركز التجارة العالمية في شارع الشيخ زايد، درجة التكييف في الغرف التي سكناها هناك كانت مرتفعة جدًّا وبشكل غريب، لم تنجح محاولاتنا الدائمة مع إدارة الفندق في خفضها، وحدها حرارة التجربة الجديدة والأمل الكبير وانبهارنا وحيوية الشباب الطاغية أعانتنا على تحمل البرودة، في كافتيريا مجموعة الـ«إم بي سي» كنا نجتمع على الغداء، أكثر من خمسين شابًّا سعوديًّا يتوزعون على الطاولات المتناثرة، منظر العاملين والعاملات في المجموعة كان ساحراً بالنسبة لنا، أشخاص من جنسيات مختلفة يتعاملون بأريحية كبيرة مع بعضهم البعض، إيقاع العمل كان رائعاً، تتوزع مجموعاتنا على الأقسام المختلفة للتدريب، وحدي كنت خارج هذا النسق في المرحلة الأولى، كان مدير الإخبارية قد قرر تكليفي بمهمة مدير البرامج قبل الانطلاقة، وهو منصب شكلي لا قيمة له على الإطلاق، كنت موظفاً رسميًّا في الوزارة بين عشرات المتعاقدين السعوديين والعرب، والمذيع

الوحيد الذي التحق بالتدريب في العربية أول الأمر، فاختار القائمون على التدريب في تصنيفي، قسم البرامج كل المتدربين فيه من النساء، ابنة مدير مكتب الوزير، وزوجة وكيل الوزارة وأخريات، وأبلغتني إحداهن لاحقاً حين تقابلنا بالصدفة خارج القناة أن وكيل الوزارة طلب عدم وجودي مع المجموعة في تدريبها مع قسم البرامج في قناة العربية، ولا أنسى تعليق السيدة المسؤولة عن توزيعنا كمجموعات هناك، قالت باستغراب شديد: لا أعرف ماذا أعمل معك بالضبط وأين أضعك؟!

تفرغت للسياحة في دبي والتسكع هنا وهناك، الكافتريا المكتظة كانت عالمي الذي لا أملّ منه، أراقب حضور الموظفين ومغادرتهم سريعاً لأعمالهم، وتعرفت على بعض المذيعين في قناة العربية وصحفي سعودي شاب أصبح صديقي فيما بعد اسمه مساعد الثبيتي، بعد فترة التحق بنا بعض المذيعين من السعودية وأصبحنا مجموعة قابلة للتدريب بعد أن كان ذلك متعذراً لوجودي وحيداً، وصعوبة تخصيص برنامج مستقل لشخص واحد، تدربنا أمام الكاميرا لبضعة أيام، ووضعنا الماكياج كما يفعل مذيعو القناة المحترفين عند تقديمهم الأخبار، بدأت درجة الحماس تتصاعد تدريجيًّا في نفوسنا من جراء جلوسنا على طاولة الأخبار وتأديتنا للنشرات على الطريقة الاحترافية، تحمست بعدها وتوجهت إلى شارع الشيخ زايد، حيث محال بيع (البدلات الرسمية)، كانت رصاصية زاهية بربطة تميل إلى الاحمرار وثمنها مرتفع قياساً بقدراتي المالية، ومع ذلك وبعد التشاور مع الصديق عبدالله المسواري الذي انضم لنا لاحقاً في دبي، تمت الصفقة،

وأثبت المسواري قدرته الفائقة في مجالات استشارية عدة،
في اليوم التالي حضرت مرتدياً الزيّ الذي يظهر به المذيعون
في القنوات الإخبارية المحترفة، كان شيء ما يدفعني لفعل
ذلك، ربما ساعدت الأجواء والطريقة الاحترافية العالية في
أداء النشرات الإخبارية وغرفة الماكياج على أن أتلبس دور
المذيع، بالمواصفات التي كنت أتخيلها وأتمناها، كنت أمنّي
النفس بقناة الإخبارية أن تكون على نفس المنوال، وأن نظهر
بشكل تنافسي يفجر طاقاتنا وقدراتنا وأحلامنا.

بعد أيام قليلة من بدء التدريب، حضر من يسأل عني في
الكافتريا، هناك من يبحث عن شخص اسمه علي الظفيري بين
الحاضرين، خالد المطرفي مراسل العربية في السعودية كان
ذلك الشخص، وخالد رجل ودود تألفه من المرة الأولى،
شاهدته مرات قليلة على التلفاز، وقبل ذلك كنت أتابع نشاطه
الصحفي يوم كان مديراً لمكتب جريدة الوطن في جدة، ولم
ينتبه لكوني أحد كتاب الجريدة في النشرة النقدية التي كانت
تأتي يوميًّا في الصفحة الأخيرة ويتناوب على كتابتها عدد من
الأشخاص، إضافة لزاوية يومية جديدة اشتركت وزميلين في
التناوب عليها فترة قصيرة من الزمن، وتوقفت عن ذلك بعد
أن انتقلت إلى الرياض قبل عام تقريباً، لم يكن لدى خالد
مقدمات كثيرة في حديثه، أخبرني أن أحدهم تحدث معه عن
مذيع سعودي جيد يعمل بالقناة الأولى ويتواجد في العربية
هذه الأيام، وأن هناك رغبة بتأدية نشرة إخبارية تجريبية
بغرض ضمي إلى القناة، لم تكن لدي أوهام كبيرة في تلك
الفترة، وأقصى ما تمنيته أن تنطلق الإخبارية السعودية بحالة
جيدة تنقلنا من مرحلة إلى أخرى، أما وقد جاء الحديث عن

انضمامي لقناة مثل العربية التي سحرتني أجواؤها وديكوراتها وحرفية العمل بداخلها، فإن أرض الكافتريا كانت قد ابتلعتني في تلك اللحظة، عرفت لاحقاً أن مساعد الثبيتي هو صاحب هذا الاقتراح ومن تحدث عني، بعد منتصف تلك الليلة حضرت إلى القناة لإجراء ما نسميه (البايلوت) أي النشرة التجريبية التي يخوضها المذيع الجديد لتجربته، تمت الأشياء بسرعة بالغة وبتكتم شديد، خطأ واحد حدث في تلك التجربة، ظهرت على الهواء لما انتقلت الكاميرا بعد نهاية النشرة الحقيقية، وكنت أجلس في غرفة الأخبار التي تقدم منها النشرات في القناة، شاهدني بعض الزملاء في الفندق وانتشر الخبر سريعاً بين المجموعة، أجريت التجربة ورفض منتج النشرة أن أعيد الكرّة مرة أخرى، أخبرته أنكم تدربون المذيعات على مراحل ومن حقي أن أعيد النشرة حتى أضمن جودتها، تحدث عن حسن أدائي وعدم الحاجة إلى التكرار، بعد أيام وعند المصعد قابلت مسؤولاً كبيراً في القناة، سلّم علي بالاسم وأشاد بي، عرفت من المطرفي لاحقاً أنهم سعداء بالتجربة، وأنه قد طلب من الإدارة إتمام عملية التعاقد معي.

لدينا في البادية مثل يشير إلى سذاجة من يبيع عباءته عند أول شعور بالدفء في نهاية الشتاء، دون أن يكون الفصل قد انتهى بالفعل، وبالطبع هناك عباءة واحدة تُشترى في البرد القارس وتباع مع فصل الصيف لضيق ذات اليد، وقد كنت ذلك البدوي الذي باع عباءة الإعلام المحلي الرسمي دون رجعة، لكن دفء قناة العربية لم يستوعب الشاب السعودي الذي غرر به العرض الوظيفي المتردد، وكان قد قرر ألا يعود إلى الوراء مهما كانت الظروف.

في الحادي عشر من يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٤م، انطلق بث قناة الإخبارية السعودية، وهي رابع قناة فضائية تطلقها وزارة الإعلام بعد القناتين الأولى والثانية، إضافة إلى القناة الرياضية التي ظهرت قبل أعوام لتهتم بالشأن الرياضي، كان مقرراً أن أكون ضمن الفريق العامل في هذه القناة، لكن مجريات الأحداث أبعدتني عن القناة الوليدة، وشاهدت انطلاقتها من المنزل بشيء من الحسرة، ولا أريد إشغال القارئ الكريم بتفاصيل كثيرة وصغيرة لا قيمة لها، لكن من الواجب عليّ توضيح ما جرى بالضبط في هذه المرحلة المهمة من عمر الإعلام السعودي الرسمي، ذاع سرّ العرض الذي تلقيته للعمل في قناة العربية، وتم التعامل مع الموضوع كحالة خيانة تم على إثرها إقصائي من القناة بطريقة غير مباشرة، ولو توقف الأمر عند هذا الحد لما كانت هناك مشكلة، من حق الإدارة القائمة على قناة الإخبارية وقد تكلفت عناء إرسالنا وتدريبنا وتأهيلنا كما تتصور، أن تنزعج من رغبة أحد العاملين فيها بالانضمام لقناة أخرى، لكن الأمر لم يتوقف هنا، نشأت خصومة خفية مع وكيل الوزارة الذي هدد المسؤولين في قناة العربية بوقف التعاقد معهم في حال قبولي لديهم، لم أكن أعرف تلك التفاصيل حينها، وأثار استغرابي تمنع العربية عن إنهاء أمر انضمامي بحجة رغبتهم إتمام ذلك بطريقة رسمية عبر إعارتي من وزارة الإعلام للقناة، ولما باءت محاولاتي المتكررة بالفشل في معرفة مصير الطلب المقدم للوزارة، ورأيت أمام عيني الإخبارية تخرج إلى الفضاء دون أن أكون أحد العاملين بها، شعرت بحسرة كبيرة وخوف مما هو قادم، تعثر طلب الإعارة الذي وجد موقف وكيل الوزارة صلباً في ممانعته، وقررت تقديم استقالتي من التليفزيون حتى لا يكون عملي عائقاً أمام انضمامي لقناة

العربية، ولما أبلغت الوسطاء عن هذه الخطوة أدركت أن المسألة تجاوزت عقدة عملي في الوزارة، وباتت مسألة شخصية للغاية، لا يمكن إتمام هذا الأمر في ظل الرفض والتأكيد الشخصي على عدم انضمامي للقناة. وصلت الأمور إلى طريق مسدود، وبعد أن كانت كل الأبواب مفتوحة في وجهي، أصبحت في حالة حصار خانقة وسدت كل منافذ الهواء، وجدت نفسي بلا عمل، في اللحظة التي كان يجب فيها أن أعمل.

بثينة النصر أول مذيعة سعودية تقرأ نشرة الأخبار في الإعلام الرسمي، وكان ذلك في افتتاح القناة الإخبارية الجديدة وفي نشرتها الأولى لجمهور المشاهدين، أحدث هذا الأمر ضجة في الأوساط المحلية، لم يعتد المشاهد السعودي ولا جمهور المحافظين الواسع في البلد على هذا الأمر، وكانت الأجواء في السعودية لا تسير في صالح الحالة المحافظة بشكل عام؛ فالبلاد تنفض عن كاهلها الأعباء التي خلفتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، السعوديون الذي شاركوا في التفجيرات ـ حسب الرواية الرسمية الأمريكية ـ ساهموا في خلق ضغط كبير تعرضت له السلطة السياسية، أصبحت الحياة الاجتماعية والمناهج التربوية ودور المؤسسة الدينية الرسمية في مرمى النيران الإعلامية والسياسية في الولايات المتحدة، قائمة من الطلبات التي أصبحت تضغط على البلاد باتجاه التحديث والتطوير في اللغة والخطاب والآليات المتبعة في إدارة شؤون المجتمع، بدأت صحيفة الوطن المهمة بمواجهة التيار الديني ومؤسساته المختلفة، حتى إن تسميتها «بالوثن» كانت قد راجت بين جمهور المحافظين الواسع في البلاد،

وشكلت حكاية ظهور النساء بلباس عصري ومحتشم في القناة الإخبارية خطوة في هذا السياق، لكن الأمر لم يتجاوز التطوير المظهري في عمل وسائل الإعلام، والقناة التي كان يعول عليها في مواكبة التغيرات الكبيرة التي طرأت في المنطقة، تحولت مع مرور الزمن إلى قناة حكومية أخرى تعمل بنفس الآليات القديمة المعمول بها في غيرها من قنوات التليفزيون الرسمي. لم يستطع الضخ النسائي الكبير على شاشة القناة، ولا التحديث الشكلي في النشرات الإخبارية، ولا الدفع بأعداد كبيرة من الشباب غير المدرب والمؤهل بشكل كافٍ، أن تضع القناة في مصاف القنوات الكبرى في المنطقة، خسرت الإخبارية المنافسة من الأشهر الأولى، ولا يعني هذا أبداً أنها لم تحقق نجاحات تذكر في طرحها ورؤاها وأشكالها الجديدة، لكن القياس على الطموحات والإعلانات المسبقة بمحطة تحتل الصدارة بين القنوات الإخبارية المتخصصة في المنطقة، كان واضحاً بشكل لا لبس فيه أن الجزيرة تحتل أكبر مساحة من المتابعة لدى الجمهور العربي والسعودي، ومن ثم تأتي العربية التي استطاعت في فترة قياسية أن تشكل منافسة جدية للجزيرة عند جمهور المشاهدين، وكان هذا في الفترة الأولى من انطلاقتها قبل أن تشهد المحطة الكبيرة تحولات جذرية في الرؤية والخطاب والأهداف، وقد استفدت من فترة إيقافي عن العمل في متابعة القنوات المختلفة بشكل دقيق، كانت أحداث احتلال العراق هي البارزة على الساحة، والجزيرة والعربية تملآن بغداد والمدن الأخرى بالمراسلين، لم أكن في تلك الأيام أميز كثيراً في مسألة الأولويات والأجندات الإخبارية، لكن السخونة والحيوية التي تتسم بها تغطية قناة الجزيرة للأحداث

كانت واضحة تماماً، ولم أكن أتخيل نفسي أبداً في هذه القناة لسببين: المهنية والحرفية العالية التي يظهرها مذيعو القناة ومقدموها في التعاطي مع الأحداث؛ ما ينسف أي فكرة تلوح بالعمل هناك، والصورة السلبية للجزيرة في الذهنية السعودية على أنها قناة يمرّ خلالها كثير من النقد للسياسات السعودية الرسمية.

سقطت تماماً فكرة أن تكون قناة الإخبارية منافسةً في الفضاء الجديد، من وجهة نظري على الأقل تلك الأيام، وأغلقت الأبواب تماماً أمام أي عودة محتملة لي، لم يكن هذا الأمر يزعجني كثيراً، فقد عقدت العزم على العمل الصحفي الجدي. السنوات الماضية والأحلام الكبيرة التي تبخرت عند أبواب المسؤولين، والسطحية التي ظهرت بها القناة الجديدة، والعرض المجمد لقناة العربية في دهاليز وزارة الإعلام، دفعتني مجتمعة أن أقطع مع الماضي وأفكر جديًّا في المستقبل، لا يريد البلد مشروعاً إعلاميًّا جديداً ينهض بالمجتمع والدولة، وكل ما يطرح ما هو إلا محاولات مواكبة مزيفة للتطورات وإجهاض مضامينها.. السياسة الرسمية واضحة لا لبس فيها.. القنوات الممولة في الخارج حائط حماية ومنصة متقدمة لتسويق السياسات، تذهب الأموال للخارج دون حساب، ولا تضع هذه المنصات حساباً للإنسان والإعلامي والهموم السعودية، أدوارها وواجباتها واضحة لا لبس فيها، وهذا ليس تقصيراً منها على الإطلاق، بل إن ما تقوم به هو الصحيح من زاوية مصلحتها ونجاحها ومن منطلقات براجماتية بحتة، لكن جيش الإعلاميين والطاقات الظاهرة وغير الظاهرة يشعر بحسرة كبيرة من هذه الأوضاع،

من عسير إلى حفر الباطن، ومن جدة إلى الدمام، آلاف الشباب والقضايا لم تجد وعاءً إعلاميًّا يستوعبها ويوظفها التوظيف الصحيح، فاتت وما زالت تفوت على البلد الكبير والغني والشاب فرصة دخول سباق النهضة الذي دخلته الأمم الكبرى، استطاعت العقلية القائمة على التخطيط والتنفيذ أن تجهض آمالنا الكبيرة في خوض غمار التحديات، انحازت للماضي كما تفعل دائماً، وحين عدت العام الماضي لتدريب مذيعي قناة الإخبارية، أدركت تماماً أي خسارة كبيرة تحققت بسبب تفويت تلك الفرصة.

من شقتي في حي الازدهار شمال الرياض كنت أراقب كل ما يجري، حسرتي كبيرة على تبخر كل شيء بشكل مفاجئ وغريب، من أبواب الإذاعة والتليفزيون المفتوحة على مصراعيها، ومن حلم الإخبارية الذي ألهمني في الأشهر الماضية، ومن عالم العربية الكبير الذي اختطفني من واقعي، من كل هذا إلى لا شيء على الإطلاق، وإلى مذيع موقوف عن عمله؛ لأنه كان يحلم فقط، مضت أشهرٌ أربعةٌ كأنها الدهر، ووجدت نفسي بعدها أقطع تذكرة باتجاه واحد، وأرحل باتجاه المجهول.

ثورة الانتقال ..
٢٠٠٤

لا أعرف كيف وجدت نفسي فجأة في قطر، قبل عامين تقريبا كنت في زيارة عمل للدوحة مع زميلين، ولما دخلنا إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون القطري، كانت علبة الكبريت الزرقاء على شمالنا، هكذا أطلق عليها الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك لما زارها برفقة أمير قطر، تنبأ الرجل مبكرا بما ستفعله به وبكل مستبد في عالمنا، مازحني زميلي وهو يعرف قدر الضيق الذي ينتابني من الإذاعة والتلفزيون الرسمي، ألا تريد زيارة الجزيرة وتقديم طلب توظيف هناك!، كان يسخر فبادلته السخرية قائلا: هذا مكان لا يليق بأمثالي من العظماء!، ورغم طابع المزاح الذي أحاط بالتعليق، إلا أنني أتذكر الآن شعور الحسرة والألم الذي رافق تلك المحادثة العابرة على مقربة من قناة الجزيرة، حين تشعر بعدم كفاءتك وقدرتك وأهليتك المهنية للانضمام لمؤسسة كبيرة في المجال الذي تعمل فيه، أو أن تقرر ذلك من تلقاء نفسك دون اختبار نتيجة العجز والخوف فقط!.

زمن طويل يفصلني عن ذلك اليوم الأول في الجزيرة، سبعة أعوام انقضت على ثورة الانتقال والفرد في وجه

الأبواب المغلقة والفضاءات المحدودة، توهم من يدير الإعلام السعودي أنه يملك حق تحديد الاتجاهات، وأن أحداً لن يحيد عن خط سيره المرسوم بعناية كبيرة للآخرين، لا يجوز لأحد مهما كانت مكانته أن يتخيل ذلك، يملك الناس خيارات أخرى دائماً، يملك الناس إيمانا وضميرا وأحلاما تدفعهم للقيام بأشياء كثيرة، وقد أخبرت من تلقى الرسالة التي تضمنت استقالتي في الطابق الخامس من مبنى وزارة الإعلام، أنني لست عبدا لأحد أو عند أحد، ورغم أنه يعرف ذلك جيدا، لكني أردت التأكيد فقط، وبشكل عملي هذه المرة!.

أمور كثيرة جدا حدثت في هذه السنوات، ولا أجد رغبة في التوقف طويلا عندها، هذه المرة على الأقل، حتى لا أقع - كثيرا - في الأمر الذي أتحاشاه منذ بداية هذا الكتاب، لا أريد لهذا الورق أن يمتلأ بما هو شخصي على حساب ما هو عام وهام، وأن يرتبط بالأفكار لا بالأشخاص وتفاصيلهم الصغيرة مهما كانت أهميتها، إن ما جرى في هذه السنوات السبع مقدمة لالتحام ثورة فرد بسيط بثورة أمة عظيمة، امتد جسر طويل من اللحظة الأولى حتى تلك اللحظة الفارقة، وكأننا على موعد سابق بانفجار عاطفي وإنساني وصحفي وميداني يزلزل الأرض العربية، لم تتأخر الأشياء كعادتها في التأخر، حضر الشارع بقوة، حمل كل شاب عربي ريشته ليرسم خارطة جديدة لمستقبلنا، اهتزت العروش والقصور ووزارات الداخلية وأجهزة المباحث وأمن الدولة، اهتز كيان الاستبداد بعد أن هُيئ للناس أن لن يهتز أبدا، واندلعت الثورة.

الفصل الثالث

عام الثورة

الشرارة الأولى

ماذا يجري في العالم العربي؟ لا بد وأن خطأً ما في الأمر كله، من غير المعقول أن تكون المسألة كما تبدو عليه الآن، إن لبساً يعتري هذا المشهد المرسوم على خارطة الوطن الكبير من أقصاه إلى أقصاه، لبْسٌ في الأشخاص والأحداث والأماكن، المساحة الواسعة الممتدة من الأطلسي إلى الخليج عاشت عقوداً طويلة من الصمت والسكون، غليان الحروب والصراعات والاحتلال والاستعمار صاحبه موت سريري عميق في حياة المجتمع العربي، فصّل القمع والاستبداد لكل شعب لغته وخطابه وخوفه وإيقاعه وتعابيره الخاصة، لكن سيمفونية الديكتاتورية كانت تعزف في نهاية المطاف لحناً متماثلاً يصيب بالملل ويبعث على الإحباط واليأس، رائحة الأغاني تشي بالآلام الكامنة في أرواح المواطنين، رئة هذا الوطن معتلة صدئة تتنفس بصعوبة بالغة، الانسدادات التي خلفها دخان الأنظمة الشمولية جعل من العسير على الهواء أن ينساب في أرواح الكادحين الحالمين بالحرية والكرامة.

منذ اندلعت النيران في قلب الجنوب التونسي في مدينة سيدي بوزيد وهي لا تنطفئ أبداً، ألسنة اللهب تسري في

عروق الأقطار العربية المتناثرة على خارطة التراب العربي دونما توقف، أصبح كل شيء له معنى في هذا العالم، بعد أن كان خالياً من أي معنى قبل ذلك، لم تكن العبارات والشعارات والصيحات بهذه الحيوية والسخونة يوماً، أعاد الربيع العربي إنتاج الأشياء، أصبح الخوف بحاجة إلى تعريف جديد، والإنسان كذلك، الحزن والكرامة والحرية والأحلام استلزم تعريفها مرة أخرى، عاد التاريخ لشوارعنا من أخرى، أدرك بعد طول سكينة أن شيئاً ما سيفوته لو مرّ سريعاً من هنا دون سرد الحكاية بتفاصيلها الدقيقة، عام الثورة يكتب التاريخ كما يجب له أن يُكتب.

عالم الأخبار

الصحفيون في القنوات الإخبارية حياتهم رتيبة في غالب الأيام، يستيقظون كل صباح بتثاقل شديد، يقرؤون الأخبار التي اعتادوا على قراءتها بشكل دوري، يذهبون للصفحات والزوايا ذاتها، يحفظ من واظب على القراءة منهم كل شيء، مكان العمود المطلوب، ماذا يمكن أن يقول صاحبه، في أي شأن، وبأي طريقة؟ يحفظون الأخبار ومواقعها المعتادة؛ فتجربتهم تسمح لهم أن يتوجهوا مباشرة للخبر المطلوب دون عناء، يتوقعون الكلمة الأولى التي يبدأ بها هذا الموقع أخباره وكذا الموقع الآخر، يدركون ماذا تريد الصحيفة والوكالة الإخبارية الفلانية بالضبط، من تريد أن تدين؟ وماذا تريد أن يظهر، وألا يظهر؟ بعض المواقع يذهب لها الصحفي من باب التسلية والرغبة بمعرفة العالم السفلي، الجملة في الأخبار الرئيسة لا تتغير كثيراً، بعض الإضافات والتعديلات كفيلة بأن تجعلها صالحة لليوم الثاني، والشهر الثاني، والسنة الثانية أحياناً، كأن نقول اليوم استشهد عشرون فلسطينيًّا برصاص الاحتلال الإسرائيلي، بعد أن كانوا خمسة في اليوم السابق أو الشهر السابق، وأضيفت لهم فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وصبي في التاسعة كان الوحيد الذي رزق به زوجان

بعد أعوام طويلة من زواجهما، لا يحتاج خبر اليوم إلى معرفة جديدة، ورؤية وتحليل جديدين، كل ما يتطلبه الأمر قسوة وصلابة إضافية، وقلب تتثاقل حركة الدماء في عروقه يوماً بعد يوم، يتأنق المذيع بعدها ويرتدي بذلة جديدة، ويلقي نشرة الأخبار.

مصادر الأخبار عند الصحفيين معدودة على أصابع اليد الواحدة، وما هو باللغة العربية منها قليل ومحدود، لا يمكنك أن تخرج بأكثر من عشر صحف عربية ووكالات أخبار موزعة على أكثر من بلد، هناك حالة استنساخ كبيرة بين وسائل الإعلام المختلفة، وتشكل وكالات الأنباء الأجنبية المصدر الرئيس لمعظم الأخبار التي نشاهدها في الصحف والقنوات التليفزيونية، لم تستطع القنوات العربية الإخبارية كسر احتكار الإعلام الأجنبي وتحقيق اختراقات كبيرة على صعيد المنتج الخبري، تتحكم ثلاث أو أربع وكالات أجنبية هي رويترز والفرنسية وأسوشيتد برس والألمانية بمعظم الحصيلة الإخبارية التي يستقبلها الناس في العالم، يحدث أن يتابع العربي أخبار العربي المجاور عبر واحدة من هذه الوكالات، كما يحدث أيضاً أن تنقل القنوات الإخبارية العربية عن هذه الوكالات ما يجري في البلدان العربية رغم وجود مكاتبها الصحفية هناك، يظهر المراسل الصحفي التابع للقناة الإخبارية وينقل الأخبار التي توردها الوكالات الأجنبية في البلد الذي يعمل فيه صحفياً من سنوات، ولهذا ارتباط بضعف الأداء الميداني للمراسلين أحياناً، أو الثقة الضعيفة فيهم من قبل مؤسساتهم الإعلامية، إضافة إلى إحجام الأجهزة الرسمية في العالم العربي عن تزويد المراسلين

والصحفيين العرب بالمعلومات، وتفضيلهم التعامل مع الوكالات الأجنبية وخصها بالأخبار، وهناك بضبابية كبيرة في الرؤية لدى معظم القنوات الإخبارية أخلت بمبدأين مهمين يتعلقان بوجوب غزارة الإنتاج والاستقلالية اللازمة عن المصادر الأخرى مهما كانت مكانتها.

شاشة الكمبيوتر لم تطفأ منذ أيام، المواقع المفتوحة ذاتها يعود لها الصحفي كل صباح، يطمئن أن العالم يحارب الإرهاب كما يجب، وأن بورصة الموت في فلسطين والعراق وأفغانستان ما زالت تسجل نقاطاً جديدة بفضل دعم الولايات المتحدة للحريات، ويشعر بامتنان للألفاظ الزاهية التي انتقاها رئيس السلطة الفلسطينية من مقره في رام الله للتأكيد على موقفه التفاوضي الذي لا يتزحزح قيد أنملة، وأن حركة الاستيطان لم تتوقف لحظة واحدة، وأن البيت الأبيض يدعم عملية السلام بكل قوة، لا جديد في الأخبار الجديدة، أبطال القصة الإخبارية لا يتغيرون كثيراً، وأحداثها غالياً، وما على الصحفي سوى قطع المسافة اللازمة بين بداية القصة ومنتهاها كما يفعل كل يوم.

الجزيرة غرفة أخبار

في اليوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٩م، انطلق برنامج في العمق في أولى حلقاته، وتزامن إطلاقه مع الذكرى الثالثة عشرة لتأسيس قناة الجزيرة، وقد تأثرت علاقتي سلباً من حيث التواصل الدائم مع غرفة الأخبار بعد أن توليت مهمة الإشراف على البرنامج وتقديمه. في الأشهر الأولى اقتصر الأمر على تقديم النشرة الإخبارية الرئيسة يوماً واحداً في الأسبوع، وبعد ذلك تفرغت بالكامل لإعداد وتقديم البرنامج الأسبوعي، ويجد المرء من خارج غرفة الأخبار فسحة أكبر في التركيز والتدقيق وقراءة نشاط هذه الخلية النشطة التي لا تتوقف عن العمل لحظة واحدة.

غرفة الأخبار في قناة الجزيرة خالية من التعقيد، روعي في تصميمها أن تكون مفتوحة ومكشوفة، يستطيع من يقف في وسط الغرفة أن يرى كل شيء، ثلاثة مكاتب صغيرة في جهة الشمال للمسؤولين الثلاثة، مدير الأخبار ومدير التحرير ومدير التخطيط الإخباري، وتقلد الثلاثة مناصبهم الجديدة قبل أشهر، في سبتمبر ٢٠١٠م، غادر رئيس التحرير السابق أحمد الشيخ غرفة الأخبار، وأحيل نائبه أيمن جاب الله إلى

إدارة قناة الجزيرة مباشر، وكان الاثنان قد توليا مسؤولية إدارة التحرير في عام ٢٠٠٤م، العام الذي شهد انضمامي للقناة قادماً من التليفزيون السعودي، والطاقم الجديد الذي في إدارة الغرفة جاء بعد تعديلات على هيكليتها الإدارية عبر تسمية مديرٍ للأخبار ونائبين أحدهما للتحرير والثاني للتخطيط الإخباري، بعد الهيكل السابق القائم على رئيس للتحرير ونائب له فقط. الدكتور مصطفى سواق مدير الأخبار كان قد تولى تأسيس مركز الجزيرة للدراسات والأبحاث، وعمل بعد ذلك مستشاراً في مجلس الإدارة لسنوات، وهو صحفي وأكاديمي جزائري عمل في مكتب الجزيرة في لندن وقدم للدوحة مع توسع الشبكة وحاجتها إليه في إطلاق مركزها البحثي. مدير التحرير حسان الشويكي يحتل المكتب المجاور، وكان قد ترقى في عمله مشرفاً على الأخبار في الغرفة بعد أن كان منتجاً حتى احتل مؤخراً موقع الرجل الثاني في الغرفة مديراً للتحرير. أما المكتب الثالث لمدير التخطيط الإخباري المسؤول عن المكاتب الخارجية لقناة الجزيرة وعن كل ما يرد من خارجها، وقد تولاه مؤخراً محمد داود القادم من موقع الجزيرة نت، وقد عمل داود صحفياً في الموقع منذ عام ٢٠٠٠م، قادماً من جريدة الشرق القطرية، وتدرج في الموقع حتى تولى إدارة التحرير فيه

(*) جرت تغييرات في نهاية ٢٠١١ عُيِّن بموجبها مصطفى سواق مديراً لقناة الجزيرة العربية، وتولى ابراهيم هلال منصب مدير الأخبار، وعاصف حميدي منصب مدير التحرير، ومحمد صافي منصب مدير التخطيط الإخباري، وغادر محمد داود وحسان الشويكي موقعيهما في القناة إلى مواقع أخرى في شبكة الجزيرة الفضائية.

لسنوات طويلة، ولد محمد داود ونشأ في الكويت حتى عام ١٩٩١م، عاد بعدها إلى الأردن مثل عشرات الآلاف من الفلسطينيين الأردنيين الذين اضطروا لذلك بعد توتر العلاقات بين الكويت والسلطة الفلسطينية إثر موقفها من الغزو العراقي.

بخلاف المكاتب الثلاثة لقيادات غرفة الأخبار لا توجد مكاتب أخرى، النظام المفتوح سيد الموقف هنا، توزع الطاولات في أنحاء الغرفة وعليها مكاتب العاملين، هناك «دسك» خاص لكل قسم من الأقسام، قسم المراسلين المعني بالتواصل مع المكاتب الخارجية وموظفيها واستقبال التقارير والأخبار منهم، إضافة إلى توجيههم حسب متطلبات العمل الإخباري، قسم التبادل الإخباري وهو قسم تقني معني بالعملية الفنية التي تمكن من استقبال المواد واستضافة المراسلين والخبراء عبر الأقمار الاصطناعية، وأمامهم مباشرة يقع القسم الأهم في غرفة الأخبار، منتجو الأخبار هم السلطة التنفيذية التي تقع على عاتقها مهمة إعداد النشرات على رأس كل ساعة، واتخاذ القرارات اللازمة للتغطيات الإخبارية المباشرة، ويتم ذلك وفق السياسات التحريرية المكتوبة والمتعارف عليها في الجزيرة، التي تضعها إدارة التحرير عبر اجتماعاتها اليومية والدورية لوضع الأجندات الإخبارية لعمل القناة، والمنتجون يقومون باتخاذ القرارات المتعلقة بكيفية معالجة كل خبر على حده، وهل يستلزم ذلك تكليف أحد الصحفيين من داخل الغرفة بإنتاج تقرير تفصيلي عن الحدث، أو ضرورة تكليف المراسل في الميدان بذلك، وقد لا يتطلب الخبر سوى مساحة صغيرة مع عرض بعض الصور المرافقة، كما يقرر المنتج ترتيب الأخبار في النشرة وتحديد ما

يستوجب منها إجراء المقابلات، ومن ثم تنفيذ النشرة الإخبارية من داخل الاستديو مع الفريق الفني المعني بإخراجها على الهواء مباشرة، يأتي بعد ذلك منتجو المقابلات الإخبارية في ديسك مقابل لهم، وهم الصحفيون القائمون على مهمة توفير الضيوف الملائمين لكل نشرة إخبارية حسبما يتطلبه الخبر، فإما أن يستلزم الأمر أحد المراسلين لمزيد من التوضيحات، أو التوجه لمحللٍ مختص بالموضوع لمعرفة أبعاد القضية وفهم ملابساتها، أو استضافة مسؤول رسمي لمعرفة المواقف وردود الفعل من الجهات التي يمثلونها. الصحفيون بعد ذلك يتوزعون في قلب الغرفة، ومهمة الصحفي متابعة الأخبار وكتابتها عبر أشكالها المختلفة، ويظهر إنتاجهم حين يأتي على شكل تقارير إخبارية مصحوبة بأسمائهم وتقرأ بأصواتهم، والصحافة التليفزيونية تختلف عن الصحافة المكتوبة في نواحٍ كثيرة، وتشكل الصورة عنصراً رئيساً في هذا الاختلاف والتّمايز، تستلزم الكتابة للصورة في عالم التليفزيون مهارات متعددة منها القدرة الجيدة على الاختزال والتكثيف والتنويع، أنت لا تخبر الناس بما يشاهدون، بل تخبرهم لماذا يشاهدون.

أقسام كثيرة تعمل في هذه الغرفة، يتسم عملها بالهدوء من جهة، والحيوية والسخونة من جهة أخرى، بعض الأعمال تبدو صغيرة من حيث الشكل، لكن كل شيء يظهر على الشاشة يكون مهمًّا ومؤثراً، خاصة حين يكون ذلك في شاشة الجزيرة على وجه التحديد، الشريط الإخباري الذي يظهر أسفل الشاشة يقوم عليه صحفيون مختصون، يتناوبون العمل على كتابة أخبار «السكرول» وتحديثها بشكل دائم، وقد أخبرنا يوماً مدير القناة

وضاح خنفر أن المسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون» يولون أهمية لهذا الشريط، ويراقبونه باستمرار عبر موظفين مختصين بهذا الأمر، قسم التدقيق اللغوي يقوم بالإشراف على النصوص الإخبارية من حيث اللغة والصياغة، وهو المرجع الفصل في كل اشتباك لغوي أو تحريري في الأخبار، وتحدث أمور كثيرة تستلزم نقاشاً مطولاً حول التسمية الصحيحة والمصطلح الصحيح، وتصدر تعميمات بوجوب استخدام الكلمة الفلانية بدلاً من غيرها، مثل التعميم الشهير باستخدام كلمة بيجين بدلاً من بكين العاصمة الشهيرة؛ الأمر الذي لم يستسغه البعض في الأيام الأولى، وكنت واحداً من هؤلاء، لكن في النهاية يتوجب توحيد المصطلحات المستخدمة وعدم فتح باب الاجتهاد الذي يؤدي إلى تشويش جمهور المشاهدين، وهناك أقسام أخرى متخصصة بالاقتصاد والرياضة والصحافة، وهي تعمل بشكل منفصل على إنتاج نشراتها الإخبارية بإشراف إدارة الأخبار، ولديها منتجون وصحفيون ومذيعون مستقلون عن النشرات السياسية كما هو معلوم.

يبقى عالم المذيعين في الجزيرة الأكثر إثارة، ويحظى هؤلاء باهتمام وعناية ومكانة خاصة، سواء كان ذلك في داخل غرفة الأخبار أو على صعيد الاهتمام الخارجي، ينقسم المذيعون إلى قسمين رئيسين إذا كانت هناك رغبة ما بالتصنيف، المؤسسون وأولئك الذين انضموا في فترات لاحقة للعمل في القناة، وينظر الأشخاص الذين عملوا في القناة إبان مرحلة تأسيسها وإطلاقها لهذا الأمر بفخر وزهو، وهو فخر وزهو مستحق، يكتب التاريخ للمذيعين الذين قدموا النشرات الإخبارية في قناة الجزيرة منتصف التسعينيات

الميلادية أنهم أصحاب حظوة كبيرة لدى المشاهدين، فلهؤلاء ينسب الفضل في إنجاح القناة وقبولها من الناس، ومساحة الحرية الكبيرة والإدارة الاحترافية للقناة والتخطيط الجيد لعملها، ما كان له أن يحقق النجاح لولا حرفية ومهنية هؤلاء المذيعين والمذيعات القائمين على إيصال الرسالة الإعلامية للمحطة، ويلعبون دور الوسيط بين القناة وجمهورها، معظم هذا الجيل المؤسس جاء من القسم العربي في محطة بي بي سي الذي أطلقت خدمته ضمن شبكة أوربت وأغلق بعد سنة من انطلاقته.

وبعد انطلاقة الجزيرة بدأت عملية التحاق المذيعين تباعاً، انضم للقناة بعد ذلك عدد من المذيعين والمذيعات واحتلوا موقعاً متقدماً ومتميزاً بين صفوف مقدمي النشرات الإخبارية، لم تتوقف يوماً عملية استقطاب مذيعين جدد لقناة، هناك إيمان بضرورة التجديد والتغيير في الوجوه التي تظهر على الشاشة، وهناك من يغادر القناة ويخلو مكانه لقادم جديد، لكن ما لا يتغير هو المواصفات اللازمة لشغل هذه الوظيفة الحساسة، الهوية المحددة للمقدمين في الجزيرة لا تتغير على الإطلاق، طريقة القراءة وطبقة الصوت والأداء الحركي والقدرة على إجراء المقابلات الإخبارية والمعرفة الجدية للأحداث تشكل العناصر الرئيسة اللازمة في هذه الشخصية، يختلف المذيعون في مهاراتهم وقدراتهم وسماتهم الشخصية لكنهم يتوحدون في صورة نهائية تجعل المشاهد قادراً على تمييز القناة من غيرها دون مشاهدتها، مجرد الاستماع له يعبر عن طابع الجزيرة المتميز عن غيرها، وهذا ديدن القنوات الإخبارية الكبرى المحترفة، تستطيع

مع مرور الزمن صياغة ملامح مميزة لها عن المحطات الأخرى.

يتمتع المذيعون في الجزيرة بحساسية مفرطة في بعض الأحيان، العمل اليومي وضغط الأخبار والشهرة الكبيرين يجدان طريقهما في التأثير على شخصياتهم، يمكن القول إن شخصية المذيع في قناة الجزيرة مركبة قليلاً، العلاقات البينية جيدة جدًّا في الغالب، ولا يلحظ المرء أثراً كبيراً لعملية التنافس القائمة عادة بين أصحاب المهنة الواحدة، صحيح إن عالم المذيعين ليس مثالياً على الإطلاق، ولا يخلو الأمر من بعض الاحتكاكات والغيرة الخفية، لكنها تظل دائماً في حدودها الضيقة، وعلاقات الود والاحترام غالبة على الجميع، ويجد الكل فرصاً بدرجات متباينة في المهام الموزعة، والعائد المعنوي الناتج عن نجاح القناة وانتشارها يجعل شعور الرضا سائداً بين المذيعين. إن أكثر ما يميز جو العمل في دائرة المذيعين رغبتهم الجادة في التميز الحقيقي في الأداء المهني، أنت لا تلحظ تنافساً محموماً بين المذيعات على المظهر كما هي العادة في أماكن أخرى، المذيعات والمذيعون يعملون ويبحثون بشكل دائم للظهور في مظهر المتمكن عند إجراء المقابلات وأداء التغطيات الإخبارية، انحصرت دائرة الاهتمام بالجودة في الأداء والقوة في الظهور والتمكن من القراءة والمقابلات والتعليق والحوار، شيء ما في هذه المحطة أقصى الأمور الهامشية منذ انطلاقتها، وجعل التركيز منصباً على الحرفية والمهنية، ومهما كانت علاقة المذيع جيدة بالإدارة فإن ما يوكل له من مهام يتوقف على أدائه ومهنيته، أدرك كل فرد ذلك من اليوم الأول لانضمامه

فانشغل به وترك الأمور الأخرى، راجت ثقافة الصحافة وتسيدت المشهد في غرفة الأخبار، وحين يدخل المذيع إلى هذا المكان لا ينظر إلى روعة ربطة عنقه، والمذيعة إلى شعرها ولباسها وزينتها، ينصب الاهتمام على ما ينتظرك في النشرة القادمة، وكيف تخرج من هذه المهمة بنجاح كبير.

يوم استيقظت الجزيرة

غرفة الأخبار في الجزيرة باردة في الأيام الاعتيادية، وقد سجل الصحفيون أكثر من شكوى في السنوات الماضية إزاء البرودة العالية لأجهزة التكييف في الغرفة، ويكون الأمر بالغ الصعوبة حين تجتمع برودة الأحداث مع برودة المكان، لكن كل شيء يتغير بشكل جذري حين تسخن الأخبار، ينقلب الحال في غرفة أخبار الجزيرة رأساً على عقب، تدب الحيوية ويزدهر النشاط المهني في وقت الأزمات والكوارث والحروب، يلحظ العامل مقدار التغير في السلوك من خلال الحركة والأصوات المتعالية والهواتف التي لا تتوقف لحظة واحدة، وفي هذه المنطقة من العالم لا يعدم الفرد تغطية ساخنة كل حين، وقد وجدت قناة الجزيرة منذ انطلاقتها في نوفمبر عام ستة وتسعين ما يجعل نشاطها المهني مزدهراً ويعزز وجودها على الساحة العربية والعالمية كمحطة إخبارية مهنية، بدأت الحكاية مع عملية ثعلب الصحراء يوم كثفت القوات الأمريكية عملياتها العسكرية الجوية على العراق، وانفرطت بعدها الأحداث بلا توقف، وكأنما قُدِّر للمنطقة أن تكون ساحة ساخنة دائمة لا تهدأ ساعة واحدة، الانتفاضة الثانية في فلسطين وحصار ياسر عرفات وتحرير الجنوب

اللبناني، تفجيرات نيويورك وغزو أفغانستان تلاه غزو العراق بعد حصاره الطويل، حرب لبنان وحرب غزة اللتان شنتهما إسرائيل في الأعوام ٢٠٠٦م و ٢٠٠٨م، وبين هذا وذاك عشرات التغطيات الإخبارية داخل المحيط العربي وخارجه.

شاركت منذ انضمامي إلى الجزيرة في ٢٥ نيسان/ إبريل عام ٢٠٠٤م، بكثير من التغطيات الإخبارية، من داخل غرفة الأخبار وخارجها، وكانت لحظات عظيمة ومؤثرة للغاية، لكن ما شهدته مع الجزيرة في بداية انطلاقة الثورة التونسية واندلاع الثورات العربية الأخرى لم يكن مسبوقاً على الإطلاق، كان حدثاً استثنائياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ويتميز بشكل جذري عن كل الأحداث السابقة رغم أهميتها الكبيرة، كانت الجزيرة في نهاية كانون الأول عام ٢٠١٠م، على موعد مع انفجار شعبي كبير وجارف وممتد في أكثر من بلد عربي، وقد لعبت القناة دوراً كبيراً في متابعة هذا الحراك الشعبي الذي غير وجه المنطقة وأعاد رسم معالمها من جديد، وما زالت تقوم بذلك، حتى قيل إنها صانعة الثورات العربية.

سيدي بوزيد تفتتح المشهد الثوري

(*) لم تجد زاويةً في سيدي بوزيد، ضاق المكان بـ«عربة الخضار»، حملت ما تيسر من فاكهة الحرية، أحرقت قيدها، جالت في الوطن العربي، ولم تتوقف بعد ذلك.

في العاشر من كانون الثاني/ يناير عام ٢٠١١م، كتبت في مقدمة حلقة «في العمق» التي خصصتها عن الثورة التونسية النص التالي:

انكسر حاجز الخوف، لم تعد خضراء تسرُّ الناظرين كما يجبْ،

أضرم البوعزيزي النار في جسد الصورة المزيفة وأشاع السواد، بحثاً عن أخضر حقيقي في بلاده،

قرر الشاب الجامعي العاطل أن يقتل الخوف في النفوس الحائرة،

وأن يُخلَّد أيقونةً في ذاكرة وطن، ما تاقت روح أهله للحرية كما تفعل الآن،

والموت الذي كان يزور الناس في منازلهم، يجد من يبحث عنه في الشارع هذه الأيام،

أيها السادة، ثمة ألوان جديدة على اتساع رقعة البلاد، لم تعد مؤشرات التنمية زاهية كما كانت، والبيوت التي فتحت قلبها للعزاء في غير مدينة، اكتست بالبياض وأشعلت شموعها، قررت

أن تترقب كل مساء روح البوعزيزي حاملاً عربة الخضار متأبطاً شهادته الجامعية، ملوحاً بيده للعيونْ، التي تترقبه مُهلِّلةً من شبابيك، وجلةً خائفةً متوجسةً من شبابيك أخرى،

يختصر العارفون الحكاية على النحو التالي،

إن الأرواح التي أحكمت السلطة القبض عليها، منذ عشرين عاماً ويزيد، ما عادت تطيق احتمالاً، وترفع الأحمر شعاراً لها..

كانت المقدمة تأييداً صارخاً للثورة التونسية، وانحيازاً غير مشروط لمطالب أصحابها العادلة، وكنا قد استضفنا في الحلقة ثلاثة من المثقفين والأكاديميين التوانسة، لطفي زيتون وهو ناشط في حركة النهضة، واستضفناه بصفته الأكاديمية كباحث في تاريخ تونس المعاصر، إضافة إلى نور الدين جبنون أستاذ العلوم السياسية في جامعة جورج تاون، ووليد حدوق الباحث الاقتصادي التونسي، وبخلاف لطفي الذي أعرف موقفه تماماً كأحد الفاعلين في حركة النهضة المعارضة، كانت مواقف الضيفين الآخرين غير معروفة بشكل كبير، أكاديميين رصينين من عاصمتين غربيتين، أحدهما يهتم بالجانب السياسي والآخر يهتم بالهم الاقتصادي، وما حدث في الحلقة أن الضيوف الثلاثة فتحوا النار بشكل علمي ومنطقي وموضوعي على النظام، عرضنا في بداية الحلقة جانباً من كلمة الرئيس التونسي المخلوع زين العابدين بن علي، التي أشار فيها إلى العصابات الملثمة والإرهابية والمدعومة خارجياً، وكانت الكلمة الثانية له في ظرف أسبوع واحد، خرجت من الحلقة منتشياً وسعيداً، الأصداء التي تبعت عرضها كانت إيجابية جدًّا، خاصة أننا استطعنا بطريقة ما تسجيل مادة مخصصة للبرنامج من تونس في

ظل سياسة القمع والمنع الشديدين، قام شاب جامعي عاطل من خلالها بعرض مأساته مسهباً بشرح الظروف التي يعيشها وإخوته، وكان أن عرضنا المادة في افتتاحية الحلقة قبل المقدمة على غير المعتاد، رحب الجمهور التونسي بالحلقة كثيراً عبر ما وصلنا من إيميلات، وما تركه الناس من تعليقات على صفحة البرنامج في موقع الفيس بوك، وفي نشرة الحصاد الرئيسة في تلك الليلة، هاجم وزير التنمية التونسي البرنامج بحجة عدم استضافة مسؤول رسمي فيه؛ الأمر الذي وجد طريقه إلى الإدارة سريعاً.

بعد يومين تلقيت رسالة من المدير العام تطلب الإفادة بالأسباب التي أدت إلى عدم استضافة ممثل للنظام التونسي في الحلقة، وفي الرسالة إشارة غير مباشرة لعدم الحياد الذي اتسمت به الحلقة، فوجئت بالرسالة كثيراً، ولم أرد عليها بشكل مباشر، ما أشارت له رسالة المدير صحيح تماماً من حيث الشكل، وهو يعبر عن حرصها الدائم على الموضوعية والحياد في المعالجة المهنية للمواضيع التي نختارها في الحلقات، لكن شيئاً ما بداخلي لم يكن مقتنعاً بمضمون الطلب، أردت أن أكتب عبارة «إنها الثورة يا سيدي»! إنها معركة المظلومين الكبرى في تونس، إنها الجزيرة التي أعطت الانحياز معنى في عالم الإعلام، هنا لا يجب النظر بعين واحدة للمُستبِدّ والمُستبَدّ به، وقد انفعلت كثيراً ساعة قراءة الرسالة واستغربت من مضمونها، وما أفعله عادة في هذه الحالات هو تأجيل الرد، ما يرد لذهنك في اللحظة الأولى يكون مشوشاً في العادة، ودرجة الانفعال العالية قد تؤدي إلى رد لا يليق بالمرسل والمستقبل، في اليوم التالي أعدت قراءة

الرسالة مرة أخرى، ووجدت أنه من المجحف المزايدة على الإدارة وعلى المدير العام حينذاك وضاح خنفر، فأنا على ثقة كبيرة بأن مشاعره تضاهي مشاعري تجاه ما يجري في تونس، لكن واجبه والمسؤولية الملقاة على عاتقه تستلزم ضبط الأداء ومراعاة التوازن في الآراء المعروضة وتحقيق مبدأ الرأي والرأي الآخر المعمول به في الجزيرة، فضلت تجاهل الرسالة وعدم الرد مؤقتاً، وسأبعث برسالة توضيحية إن لزم الأمر وأصرت الإدارة على الطلب، بعدها بيوم واحد سقط زين العابدين بن علي وابتهج الكون برمته، سقط مفعول الرسالة وانشغل العالم والإدارة بالحدث الكبير، توالت الرسائل من التوانسة ثناءً على الحلقة بأثر رجعي، أحدهم بالغ بالدور الذي لعبه البرنامج في الثورة وإسقاط الرئيس من حيث السقف المرتفع وتعرية النظام التونسي، والحديث بشكل مباشر ودون مواربة عن شخص الرئيس، خصصت الحلقة التي تليها عن تونس أيضاً، وكتبت في مقدمتها:

أبشرْ بطيبِ مقامٍ يا مُحَمّد..

أولم يقل ربُك في محكمِ التنزيل: (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)؟!

كيف وقد نفختَ الروحَ في قلبِ أمةٍ هامدةْ!!

وأيقظتَ الكراماتِ الكامنةَ في الأعماقْ..

أيقظتَ الشوارعَ والمدارسَ والمطاعمَ والبرلماناتْ..

وفي كل بيتٍ عربيٍّ يسألُ الناسُ من بعدكَ عن الطينِ الذي خُلِقَتْ منه عربتك المباركة..

عن النارِ المقدسةِ التي أحرقت الأرض من تحت الطغاة الهاربين..

يسألون: كيف استطاع البوعزيزي بين ليلةٍ وضحاها أن يُعيد إنتاج الألوان؟!

لـ تزدانَ تونس بالأخضر الزاهي كما كان يجب أن تكون دائماً..

وأن يكتب لها من دمائه الزاكية عمرٌ جديدٌ..

يا مُحَمد..

لقد أزهرت شعلتك في الوطن العربي،

أدان زعيم عربي بهستريا بالغة (القذافي) ما رأى من فعل قومك،

وارتعدت فرائصُ الآخرين..

قيل إن لهيبكَ لامسَ أرض شنقيط والجزائر والقاهرة والأردن واليمن،

وهناك من يسجل اسمه على قائمة الانتظار..

كافرٌ من يدين موتك،

ويصمت عن الموت الذي غرسته الأنظمة في أرضنا منذ عقود،

أو ليس في الموت حياة؟!

مقدمة حلقة في العمق

١٧ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١م

اتصل الصديق الدكتور بشير نافع المثقف المعروف مهنئاً على الحلقة، وبشير أبدى إعجابه أكثر من مرة بمقدمات البرنامج المكتوبة، والمصادفة هذه المرة أنه كان في منزل المدير العام يشاهدان الحلقة سويًّا، ونقل لي كيف أثرت المقدمة فيه كثيراً، خاصة العبارة التي أشرت فيها لكفر من يدين موت الشاب البوعزيزي، كانت مفارقة بالنسبة لي، واعتبرت ما حدث هو ردي على الرسالة السابقة التي تطلب الإفادة.

النتيجة التي أفضت لها الثورة التونسية كانت صادمة للجميع، لم يتوقع أكثر المتفائلين ألا تجد طائرة زين العابدين أرضاً تحط عليها بعد مغادرة تونس، وسائل الإعلام ذاتها التحقت متأخرة بركب الثورة، وكانت الجزيرة تعاني كثيراً في تغطية الشأن التونسي منذ سنوات؛ بسبب عدم سماح السلطات لها بذلك، وقد توترت العلاقة مع الجزيرة أكثر من مرة كان آخرها في أكتوبر ٢٠٠٦م، يوم دعا المعارض التونسي والرئيس الحالي المنصف المرزوقي إلى عصيان مدني سلمي عام في أرجاء البلاد، أدت تداعياته إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع دولة قطر قبل أن تعود مرة أخرى في عام ٢٠٠٨م، ولسنوات طويلة ظل مكتب الجزيرة مغلقاً في تونس بسبب حالة التعتيم الإعلامي الكبيرة التي اعتمدها النظام التونسي، ولما اندلعت شرارة الثورة في مدينة سيدي بوزيد بعد وفاة الشاب محمد البوعزيزي متأثراً بالحروق الكبيرة إثر قيامه بإشعال النار في نفسه؛ احتجاجاً على صفعة تلقاها من شرطية تونسية، وجدت الجزيرة نفسها معنية بتغطية الحدث اللافت وغير المسبوق في البلاد، كما هي عادتها في تغطية

الأحداث الساخنة في المنطقة، التي تكثفت مع خدمة النشرة المغاربية التي أطلقتها الجزيرة قبل سنوات كنشرة خاصة بأخبار المغرب العربي، وواجهت صعوبات كبيرة في الاستمرار نتيجة عمليات المنع المستمرة لنشاط القناة في معظم بلدان تلك المنطقة، فمكاتب الجزيرة مغلقة في تونس والجزائر، ولاحقاً في المغرب بعد أن كانت مقرًّا لبث النشرة في بدايتها، وبقي كل من ليبيا وموريتانيا وهذا غير كافٍ لتزويد النشرة بالأخبار والصور والتقارير اللازمة.

كسرت شبكات الإعلام الاجتماعية احتكار السلطة الاستبدادية ومنعها وسائل الإعلام من العمل في بلدانها، وما جرى في تونس كان تدشيناً لعهد جديد في المنطقة، أصبحت مواقع اليوتيوب والفيس بوك نافذة تهرب عبرها الأخبار إلى الخارج، والسلطة التي تمنع الجزيرة ومراسليها من العمل على أراضيها، لا تستطيع منع شاب من استخدام هاتفه في التصوير غير الاحترافي وبث ذلك على شبكة الإنترنت، هذا ما حدث بكثافة غير مسبوقة، تناقل الناس لقطات الفيديو المصورة من مدينة بوزيد والقصرين وباقي المدن التونسية التي امتدت لها الاحتجاجات بسرعة كبيرة، وبدا أن الجزيرة استعدت جيداً لهذا الحدث عبر التخطيط الناجح ومواكبة المستجدات، إدارة كاملة أنشأتها القناة قبل سنوات قليلة للإعلام الجديد قائمة على مجموعة من الشباب المهرة والمختصين في عالم الإنترنت والشبكات الاجتماعية، بدأ عملها بتأسيس صفحات للأخبار والبرامج على كافة الشبكات الاجتماعية، وهيأ هذا لعلاقة تفاعلية بين القناة وجمهور المشاهدين الكبير في كافة القارات؛ لذا وجدت المواد التي

بثها الشباب التونسي على الإنترنت من يستقبلها في الجزيرة، وعبر آليات معتمدة للتأكد من صحة هذه المواد والمعلومات المرفقة بها من حيث الأماكن والتوقيت، كان الطريق إلى شاشة الجزيرة قصيراً، امتلأت النشرات الإخبارية بالتقارير التي تُفصِّل فيما يجري هناك، أصبح لدى الصحفيين ما يساعدهم على إنتاج تقاريرهم الإخبارية من خلال الصور المتوفرة والمحدثة باستمرار، وتجاوز الأمر حدود النشرة المغاربية بشكل سريع، أصبح الخبر التونسي في صدر كافة النشرات الإخبارية على رأس كل ساعة، وتفاعل الجزيرة مع الحدث أدى لتفاعل الشباب التونسي في عملية التوثيق ورفع المواد على الإنترنت، ولو أن أحداً لم يتعامل مع هذه المواد لخفت وتيرة إطلاقها شيئاً فشيئاً، ولما وجدت من يتلقاها بهذه الأعداد المهولة من جمهور الشاهدين في العالم، وهنا كانت قناة الجزيرة الإنجليزية تقوم بما تقوم به الجزيرة العربية وإن بدرجة أقل في أول الأمر، تسبب حجم التغطية الكبير بإثارة سخط النظام التونسي، الساخط دائماً على القناة وتغطيتها لأي فعالية أو نشاط في البلاد، وبدأت أصابع الاتهام تتجه نحو الجزيرة كما جرت العادة، حيث انتقد مجلس النواب التونسي وأحزاب سياسية أخرى التغطية الإخبارية للاحتجاجات التي شهدتها مدن عدة في البلاد ضد البطالة والفساد والتنمية غير العادلة، واعتبروا أن التغطية تسعى لتشويه سمعة البلاد والتضليل بهدف بث الفوضى والفتنة، وقد جاء في بيان البرلمان التونسي «أن الجزيرة تسعى لتشويه سمعة تونس وبث روح الحقد والبغضاء وتوظيف مجريات الأحداث لغايات مشبوهة واختلاق الاستنتاجات المضللة والمزاعم الواهية وفسح المجال للمناوئين والمشككين للإساءة لتونس على

أساس التلاعب بالمشاعر والمغالطة الرامية إلى بث الفوضى وزعزعة الاستقرار». وقد كان هذا الخطاب معتاداً عليه من قبل الجزيرة ومن المشاهدين على حد سواء، ووصلت الاتهامات إلى تضخيم الجزيرة للأحداث والتركيز على البث المتكرر طيلة أيام عديدة لصور غير موثوقة لأجل وضع الأحداث خارج إطارها ولإيهام الناس بوقائع ترتكز على الإثارة.

استطاعت الجزيرة مواكبة الحدث بشكل تدريجي، ورفعت وتيرة تغطيتها الإخبارية بعد أن امتدت الاحتجاجات إلى قلب العاصمة تونس، لكن أحداً ما في هذا الكون لم يتصور ما آلت إليه الأمور فيما بعد، كان الاعتقاد سائداً بأن الاحتجاجات تنحصر في قضايا البطالة والشغل، وأنها ثورة خبز أخرى تشهدها تونس ولن تتجاوز هذا المدى، تفاعلت الأحداث مع بعضها البعض بطريقة عجيبة، الشباب الثائرون في الميادين، الأحزاب المعارضة، شبكات الإعلام الاجتماعي ومتابعوها الكثيرون، والجزيرة، وكان هذا كفيلاً بأن ترجح كفة الثورة على كفة الاستبداد في أيام معدودة.

لم تكن تونس غريبة في داخل قناة الجزيرة، عدد كبير من الصحفيين المحترفين يعملون منذ سنوات، وأقطاب المعارضة التونسية يستضافون بشكل دائم في برامج وأخبار الجزيرة، سواء كان الإسلاميون من حركة النهضة أو من رموز التيار العلماني مثل المعارض الشهير الذي تولى رئاسة البلاد في ديسمبر ٢٠١١م، المنصف المرزوقي، وقد استعانت غرفة الأخبار لاحقاً بخدمات الصحفي التونسي رشيد خشانة

لمتابعة شؤون النشرة المغاربية والأحداث في تونس، وهو صحفي وسياسي سابق من الحزب الديمقراطي التقدمي، وأدى تنوع مشارب العاملين واهتماماتهم السياسية والفكرية إلى إثراء الشاشة بالضيوف والأخبار وعدم طغيان توجه واحد على ما تنتجه الجزيرة من مواد، ومن الوجوه التونسية المعروفة في الجزيرة محمد كريشان وليلى الشايب والحبيب الغريبي ولطفي حاجي وزياد طروش ونصر الدين اللواتي ونبيل الريحاني ونورالدين العويديدي وآمال وناس وآخرون يعملون في أقسام الإنتاج والصحافة.

هرب زين العابدين إلى جدة في المملكة العربية السعودية، ومعه هرب الخوف والرعب من تونس، وفي تلك الليلة لم يذق قصر رئاسي عربي طعم النوم، ولا في الليالي الطويلة التي تلتها كما أعتقد، وبات واضحاً أن العربيَّ الجديد يقلب المعادلات القائمة برمتها، ويضع معادلته الجديدة القائمة على مبادئ الحرية والعدالة والمساواة ودولة القانون، وكنا في الجزيرة لا نبتعد لحظة عن غرفة الأخبار، بشكل لم يحدث من قبل.

ميدان التحرير.. الثورة الكبرى

(*) بسم الله الرحمن الرحيم أيها المواطنون في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد. والله الموفق والمستعان..

اللواء عمر سليمان ـ نائب الرئيس المصري

الطريق الواصل بين ١٤ و ٢٥ يناير/ كانون الثاني عام ٢٠١١م قصير وطويل في نفس الوقت، يحتاج المؤرخون إلى عقود طويلة لتسجيل تلك اللحظات الخالدة التي عاشتها الأمة العربية بعد رحيل زين العابدين بن علي من تونس، لم تبق دمعة واحدة في عين كل عربي يتوق للحرية والكرامة والديمقراطية، ازدهرت مواسم البكاء والفرح والنشوة في تلك الأيام، الجمل والصرخات والصور التي تبثها قناة الجزيرة أصبحت لغة الناس، وغدا صاحب عبارة «هرمنا بانتظار تلك اللحظة التاريخية» أشهر من نار على علم، هرم العرب من الظلم والجور والاستعباد والاستبداد وهدر الثروات والكرامات، هرم الإعلام من المنع والتضييق والقيود واللغات الجامدة الميتة، كانت الجزيرة من الداخل في حالة عرس لا تنتهي، ثمة شعور داخلي بين الناس أنهم أسهموا بقدر ما في التغيير الذي شهدته تونس، وكان ذلك جلياً في عبارات الشكر والثناء واللوحات التي رفعها الشباب التونسي بعد نجاح الثورة.

كنت قد انتقلت للتو من شقتي الصغيرة في حي قريب من قناة الجزيرة إلى منزل آخر أكبر مساحة، ستة أعوام

قضيتها في هذه الشقة الجميلة المتواضعة، قررت بعدها أن أستقدم عائلتي للعيش معي في قطر، الأولاد قبل ذلك كانوا في سن ما قبل المدرسة، وقد سمح لنا ذلك بالتنقل بين قطر والكويت، اعتدت على السفر بشكل شبه أسبوعي لهم، شعرت بالإنهاك مع مرور الوقت، حياة العزوبية متعبة لا ينتظم فيها وقتُ المرء، ومهما كان هامش الحرية في الحركة والتنقل والنشاطات، فإن ذلك لا قيمة له أمام رؤية أطفالك كل صباح، لم أعتد على المنازل الكبيرة في حياتي، وكانت الشقة خياري الدائم منذ أن التحقت بالعمل في التليفزيون السعودي نهاية التسعينيات، لأسباب مادية تتعلق بالإيجار المنخفض مقارنة بالمنازل الكبيرة، ولأن الشقة تبدو أكثر حميمية لمن يعيش وحيداً وأسهل في أمور التنظيف والفرش، وفي منزلي الجديد لم يكن صالحاً للنقل من الأثاث القديم سوى بعض الأمور البسيطة، وفي البيت المكون من طابقين وست غرف أساسية إضافة لغرف الخدمات الملحقة، لم يكن سوى سرير قديم وضعته مؤقتاً في إحدى الغرف الأرضية لحين إتمام عملية التأثيث، المال اللازم لهذه العملية لم يكن متوافراً، يذهب الراتب في معظمه للأقساط الشهرية كما هو حال معظم الناس، والتنقلات والسفر الدائم أنهك ميزانيتي وأعاق البدء بتأثيث المنزل، وقبل ذلك كله الأجواء الصاخبة للثورة التونسية وانشغالنا بالحلقات والإعداد لها ومتابعة موادها، كيف يمكن لصحفي أن يذهب إلى محل بيع غرف النوم وتونس تطرد رئيسها وتبعث الآمال في الشارع العربي المحبط، كنت أقول ذلك لنفسي حتى أقنع بوجوب تأجيل كل شيء، وكانت المشاعر الجياشة والمبالغة تفعل فعلها فيَّ كما لم تفعل في أيام خلت.

لم نكد في الجزيرة نفيق من نشوة انتصار الثورة في تونس، حتى ظهرت قصة الوثائق السرية للمفاوضات التي جرت بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل، في نشرة الحصاد يوم الأحد ٢٣ يناير/ كانون الثاني أطلقت قناة الجزيرة تغطية موسعة حول تلك الوثائق سمتها «كشف المستور»، وكانت القناة قد تحصلت على عدد كبير من الوثائق السرية يوضح حجم التنازلات المؤلمة التي قدمتها السلطة وفريقها المفاوض في القدس والمستوطنات والضفة الغربية، ورأت الإدارة أن هذه القضية بالغة الأهمية ويجب التركيز عليها، قبل أيام من نشر الوثائق عرضت علينا الإدارة في البرنامج مجوعة من الوثائق الخاصة، واقترحت أن نخصص حلقة الاثنين ٢٤ يناير/ كانون الثاني لهذا الموضوع، اعتذرت منهم لعدة أسباب أهمها أن الحلقة القادمة ستناقش مآلات الثورة التونسية، وهذا أهم بكثير من الفضائح التي تكشفها الوثائق عن الفريق المفاوض والتنازلات التي يقدمها لإسرائيل، فقد أصبح الأمر من المسلمات لدى المشاهد العربي، ولدى الجميع قناعة أن هذه السلطة جزء من الكيان الإسرائيلي وليست ندًّا له، وحرب غزة الأخيرة وتقرير غولدوستون عن الفظاعات الإسرائيلية أثناء الحرب وموقف السلطة منه أكبر دليل ماثل على هذا الموقف، قبلت الإدارة موقفي الذي لم يعجبها كثيراً على ما يبدو، وفي الجزيرة متسع كبير للاختلاف والتباينات في الرؤى، خاصة في القضايا غير الأساسية والمختلف حولها، وهنا تبرز الجوانب الشخصية والفكرية في التحليل وتقدير المواقف، ورؤية السعودي قد تختلف عن رؤية الفلسطيني، ورؤية الإسلامي تقدر الأمر على خلاف ما يقدره القومي العربي أو الليبرالي أو المستقل، على سبيل المثال،

يجري ذلك كله تحت مظلة مهنية واعية ومدركة لطبيعة الاختلاف وأهميته.

على إثر الانتصار الكبير الذي حققته الثورة في تونس، ومقدار المفاجأة التي تحققت في أقل من شهر وانتهت بسقوط رأس النظام، ظهرت دعوات في مواقع التواصل الاجتماعي في مصر ليوم غضب في الخامس والعشرين من يناير، الذي يوافق احتفالات الدولة بالعيد السنوي للشرطة، كنت قد دخلت عالم تويتر قبل شهر إثر تزايد الإقبال عليه من قبل الشباب والناشطين والمهتمين، ودعوة بعض الأصدقاء للتسجيل والمشاركة في هذا الموقع، تابعت في الموقع الاهتمام الكبير بهذا اليوم من قبل الشباب العربي في مصر وخارجها، أشهر الصفحات الشعبية التي دعت للاحتجاج في ميدان التحرير كانت صفحة «خالد سعيد» وشبكة رصد على موقع الفيس بوك، وخالد سعيد شاب مصري قتل في الإسكندرية في السادس من شهر يونيو/حزيران عام ٢٠١٠م، بعد أن تم تعذيبه على يد مخبري الشرطة المصرية في قسم سيدي جابر، وأثار موته احتجاجات واسعة في أوساط الناشطين المصريين ولعب دوراً في الاحتقان الكبير الذي أسهم إيجابياً في الاستجابة لدعوات يوم الغضب في ميدان التحرير وسط القاهرة، وكانت الظاهرة البوعزيزية قد انتشرت في أكثر من بلد عربي، حيث قام أربعة شبان في ١٨ يناير كانون الثاني بإشعال النار في أنفسهم في أماكن متفرقة احتجاجاً على الأوضاع المعيشية والاقتصادية والسياسية المتردية، وهؤلاء هم محمد فاروق حسن وسيد علي ومحمد عاشور من القاهرة، وأحمد هاشم السيد من

الإسكندرية، والذي توفي في نفس اليوم متأثرًا بالحروق التي أصيب بها.

كل الاهتمام كان منصبًّا على معرفة ما ستفضي له هذه الدعوات، وهل يستجيب المصريون بأعداد كبيرة لها أم يقتصر الأمر على عدد محدود من الناشطين كما كان في كل مرة؟ وهل ستشهد مصر الكبيرة والمؤثرة ما جرى في تونس؟ كانت الأوضاع متردية بشكل كبير في البلاد، وهناك انهيار حقيقي على كافة الأصعدة، اتسم النظام السياسي بالسوء البالغ وغير المسبوق، وباتت مصر القوية والمركزية رهينة لدى السياسات الإسرائيلية والأمريكية، كان هذا الجانب ما يعني عربيًّا محبًّا لمصر مثلي، هيبة مصر وقوتها وعروبتها التي فقدتها في حكم حسني مبارك طوال ثلاثة عقود، أما الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أرض الكنانة فكان المفكر المصري جلال أمين كفيلاً بشرح أبعادها والانحدار الذي وصلت له في كتابيه المهمين «مصر والمصريون في عهد مبارك» و«الدولة الرخوة»، كل شيء في مصر ينتظر الثورة وتغيير الأوضاع والأنظمة والأشخاص، وكانت الجمهورية تقف عند لحظة التوريث التي انطلق التحضير لها منذ سنوات. قرر مبارك بيع مصر برمتها من أجل توريث الحكم لابنه جمال مبارك، والطريق معبدة تماماً لهذه الكارثة، لولا أن كتب الله للشعوب العربية أن تثور على الظلم والاستبداد.

احتشد المصريون في ميدان التحرير مساء الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر يناير كانون الثاني، وجدت الدعوات التي وجهتها القوى السياسية غير الحزبية مثل حركة شباب من أجل العدالة والحرية والحركة المصرية من أجل

التغيير «كفاية» والجمعية الوطنية للتغيير استجابة جيدة، وعمت التظاهرات محافظات القاهرة والإسكندرية والسويس والمحلة الكبرى والإسماعيلية وغيرها من المدن المصرية، لكن الجزيرة لم تكن حاضرة كما يجب في ذلك اليوم، ما زال ملف وثائق المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية يتصدر اهتمام النشرات الإخبارية، هناك بعض الأخبار عن التظاهرات في مصر لكنها غير كافية على الإطلاق، وقد وقعت إدارة التحرير في خطأ كبير تم تلافيه لاحقاً، حيث المكابرة وعدم قراءة الأحداث كما يجب، كانت واضحة في تقدير الموقف، رأت الإدارة أن الوثائق التي حصلت عليها مهمة ويجب تغطيتها كاملة، وهذا صحيح ولا غبار عليه، لكن ما يجري في مصر أكثر أهمية دون شك، يمكن العودة للوثائق في أي وقت ومناقشتها بالتفصيل، إضافة إلى كونها قد حظيت أصلاً بتغطية جيدة وكافية في اليومين السابقين، لا أذكر أني احتقنت وغضبت من قبل كما حدث في هذا الظرف، تحدثت مع الزملاء في غرفة الأخبار ودخلنا في نقاشات حادة حول الأولويات وضرورة الالتفات لما يجري في مصر بالشكل المناسب، مضت الأيام الثلاثة والاهتمام جله على قضية الوثائق، في اليوم الرابع كانت الدعوة لجمعة الغضب في أنحاء مصر، وكان اليوم الثاني والثالث قد شهد صدامات بين المتظاهرين ورجال الأمن، وقع عدد من القتلى وسقط كثير من الجرحى، أدرك القائمون على الجزيرة أن ما يجري هناك أمر جلل، والاحتجاجات والتظاهرات ليست كسابقاتها في السنوات الماضية، إن ما يجري ثورة حقيقية وكبرى للشعب المصري على نظام الرئيس حسني مبارك؛ ولأن مصر من حيث الأهمية والموقع الجغرافي والتأثير الثقافي والاجتماعي

لا يماثلها بلد آخر، انتفضت الجزيرة كما انتفض الميدان تماماً، وكانت تغطية قناة الجزيرة للثورة المصرية لا تماثلها تغطية أخرى.

حدث تطور سريع ودراماتيكي في الأحداث، انتقلت التظاهرات من حالة احتجاجات اجتماعية واقتصادية وسياسية محدودة نوعاً ما إلى ثورة شعبية عارمة، انتفض العالم بأسره وهو يتابع ما يجري في مصر، وكانت الجزيرة قد رمت عن يدها كل الأخبار الأخرى وصوبت عدساتها نحو الميدان، دبت الحياة في غرفة الأخبار وأصبحت خلية عمل لا تتوقف لحظة واحدة، أوقفت النشرات الرياضية والاقتصادية والبرامج باستثناء الرئيسة منها (برامج العاشرة مساء)، اتخذ قرار بإطالة زمن النشرات الإخبارية القصيرة لتصبح ساعة كاملة، أصبحت النشرة الإخبارية تليها نشرة أخرى مباشرة، والأخبار كلها عن الثورة المصرية، كنت قد توقفت عن تقديم الأخبار قبل عام تقريباً، ولا أذكر أني تمنيت تقديم نشرة الأخبار كما تمنيت ذلك في الثورة المصرية، وبعد أن استنفرت الطاقات كلها في غرفة الأخبار، أبلغت إدارة القناة باستعدادي ورغبتي بالعودة لتقديم النشرات مرة أخرى في هذه الظروف الاستثنائية، رغبة مني بالمشاركة في هذه التغطية وتخفيف العبء الكبير على الزملاء المذيعين؛ بسبب الجدول المزدحم، رحب الإخوة بالأمر وأدرج اسمي على نشرات الأخبار من جديد، ويبدو أن الأمر لم يكن كافياً للجزيرة ولي أيضاً. بعدها طلب مني وضاح خنفر مدير الشبكة أن ألتحق بتغطية الزملاء في قناة الجزيرة مباشر، وكان متردداً بعض الشيء في طلبه ساعة التقينا في غرفة الأخبار، فربما أعتذر عن ذلك لضغط العمل

في الجزيرة الإخبارية، أو لعدم وجود الرغبة بذلك، ووضاح دمث الأخلاق يحسن التعامل مع الجميع بشكل عام، وقد حاول تبرير الطلب بحاجة التغطية إليَّ شخصيًّا، ورغبة الإدارة كلها بوجودي هناك، وهو يدرك تماماً حماسي الكبير للثورة المصرية وللثورات العربية بالمجمل، فاجأته إجابتي حين قلت له نصاً: من أجل مصر ومن أجل الجزيرة ومن أجلك شخصيًّا، أنا على استعداد للظهور في أي مكان ولو كانت الجزيرة للأطفال، قلت ذلك من باب الممازحة طبعاً، أخذني مباشرة بالأحضان تعبيراً عن امتنانه الكبير للموقف وتقديري لشخصه، ووضاح شخصية تتمتع بكاريزما وقبول كبير، وإن اختلفت مع الرجل في محطات معينة كما يحدث بين الزملاء في كل مكان، إلا أن لهذا الرجل مواقف إيجابية معي طوال سنوات عملي بالجزيرة، وكان يقدر كثيراً ما أقوم به من مهام، ويترجم ذلك في كثير من القرارات التي اتخذها في حقي يوم كان مديراً لقناة الجزيرة ومديراً للشبكة بعد ذلك، قبل أن يغادرها في شهر سبتمبر/أيلول عام ٢٠١١م.

شكَّل مكتب محمد داود مدير التخطيط الإخباري في غرفة الأخبار ملتقى لنا، كنا نقضي ساعات طويلة في هذا المكتب الصغير، يحضر ماجد عبدالهادي وفوزي بشرى ووضاح خنفر ومصطفى سواق وكل أركان الغرفة والإدارة، نتناوب على الكراسي المحدودة جدًّا في الغرفة الصغيرة، على طاولة محمد داود عدة هواتف محمولة وأمامها أربع شاشات تليفزيونية كبيرة، الجزيرة والجزيرة مباشر والجزيرة الإنجليزية والتليفزيون المصري، حيث البيانات الرسمية المنتظرة عن الرئاسة، ورغم أن داود انضم لاحقاً للقناة قادماً

من موقع الجزيرة نت، وكان طوال تجربته الصحفية مختصاً بالصحافة الورقية وصحافة الإنترنت، إلا أنه أثبت براعة كبيرة في إدارة المشهد برمته، كان هاتفه لا يتوقف لحظة واحدة، والتوجيهات تصدر سريعاً دون تردد بتحديد مسار التغطية وتجاوز العقبات التي تواجهها، وبعد سحب السلطات المصرية ترخيص العمل من قناة الجزيرة ازدادت صعوبة المهمة، لكن محمد داود وعبر فريقه من المراسلين تجاوز الحظر واستطاع الاستمرار بالتغطية المباشرة، تمكن بعض المراسلين من الدخول إلى مصر من أماكن مختلفة، وعبدالفتاح فايد المدير الجديد لمكتب القاهرة الذي كان اختيار داود الموفق، أثبت همّة وشجاعة كبيرة في التعامل مع الحدث، كان تحدياً كبيراً واجهته الجزيرة في تلك الظروف، هل تنصاع للقرار وتتوقف عن تغطية الحدث الأهم في العالم العربي، تخيلوا الآن لو أن هذا الأمر قد حدث؟! اتخذ القرار بالاستمرار والاستفادة من كل صور الفيديو التي ينشرها الناشطون على الإنترنت، ولصعوبة بث هذه المقاطع بعد أن قامت السلطات المصرية أكثر من مرة بقطع الإنترنت عن الميدان وفي القاهرة، بات الأمر على النحو التالي: لا يجب للبث المباشر أن يتوقف مهما كانت الظروف!

يمضي النهار بطوله وأنا في الجزيرة، أتنقل بين استديو الأخبار واستديو البث في قناة الجزيرة مباشر، كانت التغطية لا تتوقف لحظة واحدة في القناتين، وفي الجزيرة المباشر هناك اتصالات دائمة مع الناشطين والسياسيين والمشاهدين من كل مكان، وطبيعة القناة أكثر مرونة من الجزيرة الإخبارية المحددة بأخبار ومقابلات قصيرة؛ لذا كنت أميل قليلاً للعمل

مع المباشر في كثير من الأحيان، خاصة عندما تسخن الأحداث بشكل كبير، هناك تجد متسعاً من المساحة للتعليق والوصف والمقابلات المفتوحة مع كل الناس، وأهم مقابلة أجريتها في خضم الأحداث كانت مع الدكتور محمد سليم العوا المرشح الحالي للرئاسة، فقد تشكلت لجنة سمت نفسها بلجنة الحكماء بقصد الحوار مع نائب الرئيس اللواء عمر سليمان، لا أذكر في حياتي المهنية أني مارست القسوة والحدة في إجراء مقابلة مع أحد كما فعلت في تلك المقابلة، استفزتني التسمية التي منحتها اللجنة لنفسها، والدور الذي حاولت أن تلعبه وفكرة الحوار مع عمر سليمان المرفوضة من الثوار في الميدان، كانت ردود الفعل على هذه المقابلة كبيرة جدًّا، ووجدت قبولاً واسعاً من الثوار لاحظت صداه في مواقع التواصل الاجتماعي، كان واضحاً من هذه المقابلة أننا قد توحدنا بشكل كامل مع الميدان وما يجري فيه، المسافة التي تفصل الصحفي عن الناشط في الأرض باتت قصيرة جدًّا، ولا أعرف اليوم إن كان هذا الأمر صائباً بالكامل، لكني على ثقة بأنها مرحلة مفصلية من عمر الأمة لا تخضع للاعتبارات والمعايير القائمة في الظروف الاعتيادية، وحدث أن أشارت الناشطة المصرية نوارة نجم في إحدى النشرات الإخبارية لارتدائي علم مصر، وكانت تعني ألوان (البدلة) وربطة العنق التي ظهرت بها، وحقيقة لم يكن شكرها ولا ملاحظتها في محلهما، إذ لم يخطر في بالي أن الألوان تشبه ألوان العلم المصري، وقد عبرت على الهواء عن استغرابي من ذلك، لكني بعد ذلك عبرت بوضوح وفخر كبير إلى أنني أتشرف بارتداء العلم المصري كحال كل عربي يقف إلى صف الثورة، هذه المواقف والحماس الواضح في عملي

والنشاط المحموم في مواقع الشبكات الاجتماعية، أدت مجتمعة إلى تقريبي كثيراً من هذه الثورة العظيمة، وكنت سعيداً للغاية بهذا الأمر ومعبراً باستمرار ودون تردد عن موقفي الداعم والمؤيد إلى أبعد مدى.

أخذت أحداث الثورة مساراً تصاعديًّا، يوماً بعد يوم تزداد الحشود في ميدان التحرير، والجزيرة لا تتوقف لحظة واحدة عن مراقبة الميدان من كاميراتها المسلطة على المكان، قيل إن الجزيرة صنعت هذه الثورة بسبب الاهتمام الكبير وغير المسبوق الذي نالته، وفي هذا إجحاف كبير بحق من ضحوا بدمائهم واستقرارهم وحياتهم من أجل الثورة، في هذا تقليل من عظمة أولئك الشباب الذين قلبوا كل المعادلات القائمة، الشباب الذين أحدثوا انقلاباً بشريًّا في فهم القوة والصمود والأمل، وأثر ذلك في حياتنا بشكل لافت، حين يقف شاب أعزل بشجاعة لا نظير لها أمام مدرعة للقوات الخاصة، وتضطر المدرعة ومن فيها للرجوع أمام البسالة منقطعة النظير في هذا الموقف، حينها يكون من صنع الثورة هم أولئك الشباب وليس الجزيرة، وأقول هذا الكلام لأن من ينسب الثورة للجزيرة يفعل ذلك بقصد التقليل من قيمة الثورة عن جهل أو سوء نية، وبقصد الإشارة غير الإيجابية لدور الجزيرة والإعلام في هذه الثورات، وهو أمر غير صحيح على الإطلاق. لعبت الجزيرة دوراً كبيراً في الثورة المصرية، واستطاعت عبر تكثيف التغطية في جعل الثورة حدثاً عالميًّا، كما أنها حمت المدنيين المعتصمين في الميدان من القتل بسبب البث المباشر وعدم قدرة النظام على ارتكاب جرائم كثيرة أمام نظر العالم كله، وفعلت ذلك كله ليس انتقاماً من

النظام المصري الذي يستحق الانتقام لسوء مواقفه وبيعه مصر والعرب لأجل مصالحه الصغيرة، وليس لأن قطر على خصومة مع النظام المصري، وليس لأن الإخوان المسلمين المصريين والعرب ساعدوا على ذلك، بل لأن الثورة المصرية كانت ثورة العرب على تاريخ طويل من الاستبداد والظلم والقمع وإهانة البشر وتضييع فرص النهضة والتطور والعيش الكريم؛ ولأنها كانت في اختبار حقيقي لكل تاريخها وشعاراتها ورسالتها المهنية والإنسانية أمام عين كل عربي كان يراقب في تلك اللحظات، ولأنها انحازت كما يجب لها أن تنحاز في تلك الأيام التاريخية من عمر الأمة، فعلته لأنه لا بد لها أن تفعل ذلك.

كان عزمي بشارة المفكر العربي البارز موجوداً في غرفة الأخبار، والمشاهدون العرب على موعد يومي مع إطلالته للتعليق والتحليل على الأحداث في مصر، وهذا الرجل لعب دوراً استثنائياً في هذه الثورة وغيرها من الثورات، قلما تجد على شاشات التليفزيون مثقفاً بهذا الحجم من المعرفة والقدرة على التحليل السليم، وهذه القدرة والصلابة والإيمان بالحقيقة والتنظير لها بلا كلل ولا ملل، كان الثوار ينتظرون ظهوره وما سيقول في كل مرة، وفي الجزيرة كان المستحيل دائماً، الحرفيون والمهنيون يقومون على العمل بشكل صحيح، المثقف الملتزم الواعي، الشيخ العالم المنحاز للشعوب وحقها في الحرية، وقد كان للعلامة الكبير الشيخ يوسف القرضاوي ودعمه ومواقفه فضل كبير على هذه الثورة، إضافة للسياسة الداعمة التي تترك أكبر المساحات اللازمة للعمل الإعلامي والمتمثلة بالموقف الرسمي القطري الإيجابي من الثورة،

والأهم من ذلك كله الشبابُ في الميادين تنهض دعواتهم ومطالباتهم بالديمقراطية وسقوط الاستبداد، وعصر يوم الجمعة الحادي عشر من فبراير/شباط كنت قد خرجت لتدخين سيجارة عند بوابة الجزيرة، انضم أحد الزملاء المصريين في القناة لي، تجادلنا طويلاً حول ما يجري، كانت له بعض التحفظات على الثورة وعلى أمور تتعلق بالتغطية التي تقوم بها الجزيرة، وأن البلد بحاجة إلى الاستقرار وربما تكون الأمور أفضل مع حكم عمر سليمان، أذكر أني انفعلت كثيراً من موقفه وتجادلت طويلاً معه حول الموضوع، وبينما نحن منهمكان في هذا النقاش، إذ بأحدهم يصرخ باتجاهنا: أنتم هنا والدنيا مقلوبة في الداخل!

كان عمر سليمان قد ظهر في خطابه الشهير معلناً تنحي مبارك وتسليم السلطة للمجلس العسكري، لا يمكن للمرء تخيل ما جرى في تلك اللحظات داخل غرفة الأخبار في قناة الجزيرة، ذهبت راكضاً ووجدت الناس تبكي بفرح، أول من قابلت الزميل محمود مراد المذيع المصري الجميل، حضنته وباركت له هذا النصر الكبير، وكان محمود من أكثر المذيعين المتحمسين لهذه الثورة بحكم انتمائه، بعدها التفت لأجد في كل زاوية صحفي أو صحفية يذرفان الدموع، توجهت مباشرة إلى محمد داود، حضنته بقوة ولم نستطع البكاء، كان يستحق التهنئة على كل ما قام به من جهود في هذه التغطية الكبيرة، وضاح أيضاً كان هنا والشيخ حمد بن ثامر رئيس مجلس الإدارة انضم لاحقاً، كان الكل يهنئ الآخر على هذا النصر الكبير للثورة العربية الأكبر والأهم، والتهنئة يختلط فيها شعور المواطن العربي الذي نجحت ثورته في

مصر من جهة، والصحفي الذي أدى دوره كما يجب في تلك الأيام العصيبة من جهة أخرى.

خرجت على الهواء بعد ذلك، وكانت الفرحة بادية على وجهي وعلى كل الزملاء قبلي وبعدي، انضم لي في الاستديو الدكتور عزمي بشارة، باركت له على الهواء وأمام الناس، حضر وفد من الجالية المصرية ودخل القناة، وأراد الظهور على الهواء لشكر الجزيرة والدكتور عزمي على وجه الخصوص، لكن ذلك لم يكن مناسباً مع طبيعة الجزيرة. نقلت للدكتور شكر الناس على موقفه المميز من ثورتهم، لكن عزمي بشارة يظهر من الحزن والغضب ما يتواءم مع طبيعة الحدث، بيد أنه لا يجيد إظهار الفرح الذي في داخله.

افتتح الصحفي السوداني الرائع فوزي بشرى تقريره بالآية الكريمة: **﴿فاليوم ننجيك ببدنك، لتكون لمن خلفك آية﴾**.

وكانت أعظم آية لمن يعتبر!، في الثالثة فجراً قدت سيارتي عائداً إلى المنزل، نثرت في الطريق كل الدمع المحبوس من لحظة الإعلان، ما منعت نفسي عنه في غرفة الأخبار وبين الناس أطلقت له العنان في الشارع الذي يخلو من السيارات، تمنيت في تلك اللحظة ألا أعود إلى البيت، وأن أهيم على وجهي في الدوحة، لكن التعب والإنهاك دفعاني للعدول عن الفكرة، وجدت المنزل خالياً موحشاً بارداً كما في الليالي السابقة، هناك قطعة فرش صغيرة وضعتها في الصالة الكبيرة الخاوية، كتبت في تويتر: «عاشت مصر، ونمت بقلق وفرحة وحزن».

يبدو أنه بسقوط مبارك من هرم السلطة في مصر، انتهت

الأيام الثورية الجميلة التي تجمع العرب، وجاء عهد الاختلافات والتباينات الكبرى، ومن اليوم الذي أعلن فيه عمر سليمان نائب الرئيس المصري تنحي مبارك عن السلطة، اندلعت ثلاث ثورات في ظرف أيام معدودة، في يوم التنحي كانت شرارة الثورة اليمنية قد اشتعلت بإعلان يوم الغضب في الحادي عشر من فبراير/شباط، وبعدها بثلاثة أيام اندلعت الثورة في البحرين تلبية لدعوة مجموعات شبابية على الفيس بوك وتويتر ليوم غضب في اليوم الذي يصادف الذكرى العاشرة لإطلاق الميثاق والدستور البحريني الجديد، وتم الإعلان عن اعتصام في محيط دوار اللؤلؤة الشهير بالمنامة، وكانت محاولة واضحة لترميز الاحتجاجات كما شهد ميدان التحرير في الحالة المصرية، وفي السابع عشر من الشهر نفسه وبعد ثلاثة أيام من الاحتجاجات في البحرين، انطلقت دعوات للتظاهر في ليبيا لتنضم إلى البحرين واليمن في ثورتيهما الشعبيتين، وفي العشرين من فبراير/شباط دعا الشباب في المغرب لاحتجاجات مماثلة، وبالفعل اشتعلت الشرارة هناك لكنها لم تبلغ المدى الذي وصلت له الأمور في البلدان الثلاثة السابقة، واستمرت حركة احتجاجية وقوة سياسية ضاغطة حتى يومنا هذا، ولهذا الأمر أسباب كثيرة يطول شرحها.

حيرة الجزيرة

كنت ما زلت في غرفة الأخبار أقدم النشرات بعد العودة مجدداً لها إبان الثورة المصرية، وبعد قرار إدارة الجزيرة بوقف البرامج الحوارية دون استثناء بغرض التغطية المستمرة للثورات العربية، وكان قراراً صائباً إلى حد كبير خاصة وقد استعيض عنها ببرنامج حديث الثورة اليومي التحليلي؛ ولأن البرامج تحتاج إلى تخطيط وإعداد مسبق وهو ما يتعارض مع وتيرة الأحداث السريعة والمتغيرة بشكل يومي، وحين تناقش موضوعاً في مصر أُعدّ له سابقاً في يوم تسخن فيه الأحداث في مكان آخر، سيبدو لجمهور المتابعين وكأنك تتجاهل هذا الحدث الراهن.

ومن خلال تواجدي شبه اليومي في غرفة الأخبار أستطيع أن أنقل ما كان يجري هناك؛ فالجزيرة التي استمرت طوال الثورة المصرية في نقل حدث واحد، ومن مكان واحد على الأغلب، وتناقش قضية واحدة معروفة ومحددة، أصبحت اليوم على محك تغطية الثورات العربية، لديك تونس ومصر من جهة، والتي لم تهدأ الأمور فيهما أبداً، ولديك ثلاثة بلدان أخرى تعج بالأحداث الساخنة، من ناحية الوقت

المخصص لكل حدث أصبحنا أمام أزمة كبيرة، ومن حيث الأولويات وترتيب الأخبار والتعليق عليها هناك تحدٍّ أكبر أمام جمهور المشاهدين بشكل عام، وجمهور الثورة بشكل خاص، فالكل يريد تغطية مساوية لتغطية الثورة المصرية وعلى منوالها، وهذا مستحيل كما هو واضح، فلا يمكن للقناة أن تركز على الاحتجاجات في بلد عربي وتتجاهل البلد الآخر، وما جرى أن إدارة التحرير كانت تتابع الكل تقريباً، لكن أولويات النشرة والتغطية تتوقف على قوة الحدث ودمويته وأهميته وتأثيراته على المحيط، ومن هنا أصبحت التغطية المستمرة على شكل ملفات تفتح لكل الثورات والاحتجاجات، وتأخذ هذه الملفات موقعها ومساحتها من التغطية حسب مجرياتها ومستجداتها اليومية، وعلينا ملاحظة أمر مهم هنا، تحديد هذه الأمور يقع على عاتق إدارة التحرير في القناة، والتي تعمل بشكل دائم دون توقف، وتحت ضغط الأحداث المهولة والصادمة لنا جميعاً في العالم العربي، وتحت ضغط المشاهدين الذي لا يتوقف أيضاً، إما نقداً أو مطالبة وحثًّا على مزيد من التغطية والتركيز على ملف معين، كان منتج النشرة الإخبارية في الجزيرة لا يتحرك من أمام شاشة الكومبيوتر لحظة واحدة، الأخبار من الميدان، والأخبار من الوكالات، والأخبار من الهاتف، والأخبار من زميل آخر اطلع عليها في موقع إنترنت أو على صفحة فيس بوك وتويتر، الكل يجذب هذا المنتج من جهة، ولا يملك سوى خمسين دقيقة يضع فيها كل شيء، اتخذ قرار قبل دقائق بأن يكون الخبر الليبي وأنباء القتلى الذين سقطوا هو الأول في النشرة، لكن قبل بداية النشرة بدقيقة وردت أنباء عن مقتل ضعف هذا العدد في اليمن، والوصف هنا ليس من باب المبالغة أبداً،

بل هو ما كان يحدث في حالات كثيرة، ولك أن تقيس على كل ذلك.

أمر آخر ومهم شكل عبئاً كبيراً على الجزيرة في تغطياتها اللاحقة للثورات العربية، النظرة لها لم تكن على أساس أنها قناة إخبارية تنقل ما يجري، بل لكونها قناة الثورة الوحيدة التي ترعاها وتدعمها وتلبي حاجاتها وتوجهها وتحرض على نصرتها، وهذه النظرة مبررة إلى حد ما قياساً على التغطية الكبيرة التي شهدتها الثورة المصرية قبل ذلك، لكن أحداً لم يسأل نفسه التالي: هل قررت الجزيرة بمفردها أن تكون التغطية في مصر على هذا النحو، أم أن العرب جميعاً من المحيط إلى الخليج كان لا هم لهم سوى متابعة ما يجري في مصر؟

هل التغيير الذي يجري في مصر من حيث الأهمية الجيوسياسية والاستراتيجية مثيل لأي تغيير يجري في بلد عربي آخر؟ يضاف هذا إلى تفرد الثورة المصرية والتونسية عن غيرهما بأنهما الوحيدتان في ذلك الوقت، لم يكن هناك ثورة أخرى تشغل الناس عن الثورة التونسية والمصرية في وقتهما، وقياساً على هذا كله كان على إدارة الجزيرة أن تعيد الحسابات وتخرج هي نفسها من أجواء الثورتين المصرية والتونسية، لكنها لم تفعل ذلك ولا يمكن لومها أبداً، لم يكن أحد يستطيع إخراج نفسه من تلك الأجواء الثورية الساخنة على الإطلاق، إنما ينظر شخص مثلي بعد مضي تلك الأيام ويقول إن عليها أن تفعل ذلك، أن تقف لحظة تأمل كبيرة وتلتقط أنفاسها من جديد وتتجاوز نشوة الثورة المصرية وأحداثها، وتدرك أن ما جرى في مصر خلال ثمانية عشر يوماً لا يمكنه أن يتكرر في بلد آخر كما أثبتت الأحداث لاحقاً.

والبحرين !

في تقديري إن أكبر خطأ ارتكبته القوى الشبابية في البحرين هو التوقيت، وقد أسرَّ لي الشيخ علي سلمان أمين عام جمعية الوفاق المعارضة في لقاء مع بعض المثقفين حين سألته عن الأمر، أن الخطأ كان في توقيت الاحتجاجات بالفعل، ما وصلت له الأمور بعد أشهر من تلك الانتفاضة يرسخ من هذه القناعة التي وافقني عليها زعيم المعارضة البحرينية، وما أثارته هذه الانتفاضة الشعبية من أزمة طائفية في المنطقة يدعو لصحة هذا الاعتقاد، وعلينا أن نفرق هنا بين كونها احتجاجات طائفية، وهذا أمر ليس دقيقاً على الإطلاق، وبين كونها قد أثارت إشكاليات طائفية نتيجة تركيبة المعارضة البحرينية التي يغلب عليها الطابع المذهبي، وهو ما أشير له على وجه الخصوص.

قبل ١٤ فبراير/شباط بدأت أتلقى على الإيميل وفي حسابي الشخصي على تويتر والفيس بوك سؤالاً واحداً من بعض البحرينيين، هل ستغطون الثورة في البحرين كما فعلتم في مصر؟ وكان السؤال يوجه للشخص الخطأ بالطبع، فلست المسؤول عن وضع سياسات التحرير في المحطة، لكن الناس

تريد من تتحدث معه من الجزيرة، وقد كنت نشيطاً إلى حد ما على مواقع التواصل الاجتماعي، إضافة لكوني من المتحمسين - بوضوح كبير - للثورتين المصرية والتونسية، ولا أريد التبرير للقناة هنا، لكن ثمة تصورات خاطئة عند كثير من الناس تعقِّد الأمر وتجعله يبدو على غير ما هو عليه، منها على سبيل المثال التصور بأن قدرة الجزيرة مطلقة ولا حدود لها، ومنها أيضاً أن الجزيرة تحتار ما تغطيه دون اعتبار للمشاهدين وموقفهم واتجاهاتهم التي تمثل الصحفيين ومواقفهم واتجاهاتهم وتصوراتهم أيضاً في كثير من الأحيان، ومنها أيضاً أن الانقسام في البحرين حدث في اليوم الأول تماماً بين من يرى في الأمر ثورة شعبية مطلبية ومن لا يرى ذلك. أما المقارنة مع مصر فكانت مقارنة لا تجوز على الإطلاق للأسباب الكثيرة المعروفة المتعلقة بالحجم والتأثير وما أشرت له سابقاً؛ ولأن ثورات أخرى أكثر دموية وشراسة تزامنت مع احتجاجات البحرين، وهذا كله لا يقلل أبداً من قيمة وأهمية الاحتجاجات وقداسة الدم البحريني الذي سال في شوارع المنامة تلك الأيام.

لم يكن النظام في البحرين يستحق شعار الإسقاط كما هو الحال في أنظمة أخرى عربية، هذا ما كان يراه البعض وأوافقهم عليه، ليس لأن النظام هناك عادل وملائكي وديمقراطي؛ لكن لأن طبيعة النظام وحالة التعايش القائمة في البحرين والدرجة المقبولة من الديمقراطية بعد تولي العاهل البحريني حمد بن عيسى الحكم في البلاد، ساهمت مجتمعة في تشكيل هذا الانطباع لدى الكثير خارج البحرين؛ ولأن المعارضة شيعية في الغالب، ورافق المطالب المحقة والعادلة

التي رفعها الشباب في دوار اللؤلؤة شعارات تنادي بإسقاط النظام رفعتها أطراف أخرى، وتحملت مسؤوليتها المعارضة التي لا توافقها على هذا الطلب دون أن تملك القدرة على معارضته بوضوح، إضافة للافتات كثيرة ترفع صور آيات الله من خارج البحرين؛ ما صبغ الاحتجاجات بالصبغة المذهبية، ولعب الإعلام البحريني والإعلام المناهض للاحتجاجات في المنطقة دوراً كبيراً في تكريس هذه الصورة المجتزئة عما يجري في البحرين، كما أن عودة المعارض البحريني حسن مشيمع ورفعه لواء الجمهورية عزز من هذه الصورة وأكدها في أذهان الذين كان يقع على عاتقهم عبء وأمل التعاطف والدعم كما في الحالات العربية الأخرى.

إن ما جرى هناك خليط بين المطالب العادلة والديمقراطية في معظمها، ومثيرات أخرى تشي بالطبيعة المذهبية للاحتجاجات أو القائمين عليها، ولم ينفع في هذا مشاركة جمعية العمل الديمقراطي «وعد» وبعض رموزها من السنة البحرينيين لهدم تلك الصورة التي تشكلت في الداخل والخارج، ومقابل هذا كله تشكل ائتلاف سياسي من السنة في البحرين تحت اسم تجمع الوحدة الوطنية (الفاتح)؛ ما جعل المشهد يرتسم على النحو التالي، الشيعة مقابل السنة! وتم استدعاء ما جرى في العراق من اقتتال طائفي سني شيعي بعد الاحتلال، واستحضار شعارات تصدير الثورة الإسلامية الشيعية في إيران، والهلال الشيعي الذي كان ملك الأردن قد أشار له قبل أعوام، تم استحضار كل ما من شأنه تأجيج الصراع الطائفي في الدولة الصغيرة التي نالت حيزاً كبيراً من اهتمام المنطقة سياسيًّا وإعلاميًّا، ولو عدنا لشريط الأحداث اليوم

المتطرفين السنة بعدم قسوتها على إيران، وكأن الجزيرة سيف يطلب منه التشديد هنا واللين والرفق هناك. أما الحجة القائلة بتأثير الموقف القطري على سياسة الجزيرة فإنها تتجاهل الخلافات الكثيرة والكبيرة التي شابت العلاقات القطرية البحرينية، كان الأمر واضحاً بالنسبة لي على الأقل في غرفة الأخبار، هناك أحداث أكثر مأساوية ودموية في أماكن أخرى، وهناك انقسام شعبي حقيقي حول ما يجري في البحرين يُصعِّب من مهمة التعامل مع الاحتجاجات، وكأن شعباً بأكمله يقف في وجه السلطة، والقول بإمكانية معالجة أفضل وأقوى في ظل هذه المعطيات قولٌ صحيح، ونقد تتقبله الجزيرة من الداخل، وهو ما كان يدور فعلاً بين الصحفيين وإدارة التحرير.

لقضية البحرين وجه آخر يتعلق بموقفي الشخصي منها، والإشكاليات الكبيرة واللبس الحاصل حول هذا الموقف، وقد كان تويتر ميداناً لهذه الحرب والهجمة الكبرى التي تعرضت لها من البعض، حتى إنه تم تصويري على نحو غير صحيح وغير مقبول في بعض الأحيان، في بداية الأحداث أدرت حواراً مع الصديق نواف القديمي الكاتب الصحفي والناشر السعودي، وهو ناشر هذا الكتاب، شعرنا سويًّا بالأزمة الكبرى التي نتجت عن اندلاع الاحتجاجات في البحرين، فمن ناحية نحن نؤيد دون تحفظ المطالب الإصلاحية التي رفعها الشباب والمعارضة البحرينية، ومن ناحية أخرى نستشعر المشكلة الكبرى نتيجة بعض ما تقوم به أطياف المعارضة المذهبية بوضوح، وكذلك تركيبة وبنية الجمعية الأساسية في المعارضة، ألا وهي جمعية الوفاق، واتفقت مع نواف على

أن نجري هذا الحوار في تويتر، حيث كان الإقبال كبيراً على الموقع، وهناك حاجة ماسة لدى قطاع كبير من الشباب إلى نقاش يوضح ما يصح وما لا يصح في هذه الحالة، وبعدها يفتح الباب للتعليقات من جمهور المستخدمين على ما جاء في الحوار من أفكار، وما طرحه القديمي واتفقت معه حوله، كان هو ما نقوله اليوم تماماً، لا خلاف حول مطالب الإصلاح، لا خلاف حول الحكومة المنتخبة والبرلمان كامل الصلاحيات التشريعية، لا خلاف على العدل والمساواة وعدم التمييز، هناك رفض كامل وتام لمطلب إسقاط النظام، هناك مشكلة كبرى حول البنية المذهبية لجمعية الوفاق، وهناك إشكاليات عدة حول السلوك الشيعي الذي يخلط المذهبي بالسياسي بشكل فاضح ومنفر، كما أن هناك لبساً حول العلاقة مع إيران التي لم تستطع الأحزاب السياسية الشيعية حلها بالكامل، وتتعامل معها بتحفظ واضح، وتترك المجال لأوهام البعض وتحريض وتأليب وكذب البعض الآخر، وعلى الرغم من هذه الملاحظات التي جاءت في الحوار، والملاحظات الكثيرة التي أوردتها في أكثر من مقال عن جمعية الوفاق والأحزاب الشيعية الأخرى، إلا أن حملة الكذب والتحريض من متطرفين سنة موالين للنظام لم تتوقف يوماً، أصبحت زعيماً للصفوية عند البعض ومدافعاً عنها!، ولم يكن هؤلاء يقبلون سوى بإدانة المعارضة والوقوف قلباً وقالباً مع النظام في ظلمه وتمييزه وسلطويته، وهو ما لم يكن ليحدث أبداً، ولن يحدث على الإطلاق.

ثورة أهل اليمن وليبيا

في اليمن وليبيا لم يكن هناك مذاهب وطوائف كما هو الحال في البحرين، ولم يكن هناك ما يستوجب التوقف عنده من النظام الذي أمعن مباشرة في قتل المحتجين وطحنهم بشكل بشع، وكانت تغطية الجزيرة متوازنة للاحتجاجات في البلدين، بل إن حالة حب وعشق متبادلة حصلت في الحالتين، هناك امتنان كبير وواضح من الثوار والمحتجين في تلك الميادين، وهناك ارتياح كبير أيضاً من قبل الجزيرة في التعامل مع الثورتين اللتين لم تسببا لها كثيراً من الصداع والإرهاق، لليمن قصة خاصة أوردها في نهاية هذا الفصل ولا علاقة لها بالجزيرة، بل بموقفي الشخصي من هذه الثورة، أما ليبيا فحدث فيها ما لم يتوقعه أحد في العالم العربي، بسبب القذافي ونظامه الإجرامي والفظاعات التي ارتكبها في حق شعبه، والمجزرة التي كانت تقف على أبواب بنغازي مدينة الثورة، أصبح تدخل الناتو مقبولاً في الضمير الشعبي وعند الجزيرة أيضاً، رغم العلاقات المشحونة مع الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الغربية بسبب التغطيات الإخبارية لغزو أفغانستان والعراق، إضافة لتغطيات لاحقة أبرزها الحرب الإسرائيلية على لبنان وقطاع غزة، التي اتسمت جميعها

بالجرأة الشديدة والنقدية الكبيرة وكشفها لفضائح الأمريكيين والإسرائيليين، وهناك اليوم من يربط تغطية الجزيرة للثورة الليبية بالموقف القطري الداعم بشكل مطلق لها، والذي لعب دوراً بارزاً في الجامعة العربية لإدانة النظام الليبي الصديق السابق لقطر، وهذا الأمر يتجاهل مواقف الجزيرة من الثورات الأخرى، ويتجاهل أيضاً الموقف القطري الرسمي منها، الذي اتسم غالباً بالتأييد والدعم السياسي. إن ما جعل الناتو مقبولاً في الوعي العربي الشعبي هو القذافي نفسه، وما قام به وما كان سيقوم به تجاه شعبه عند أبواب بنغازي، وليس أحداً غيره.

موعد مع الأحزان ..

قبل عام من الثورة الليبية قدمت قريباً لي اسمه ناصر إلى علي حسن الجابر المشرف على قسم التصوير، كان ناصر قد تلقى تدريباً في مركز الجزيرة للتدريب والتطوير الإعلامي في مجال التصوير التليفزيوني، وهو شاب قوي البنية متقد الذهن يتمتع بحيوية وذكاء وقدرة على التعلم، احتفى به علي الجابر وأصبحا صديقين بعد ذلك. تدرب ناصر في القسم أربعة أشهر، ورأى فيه علي الجابر مصوراً ناجحاً قابلاً للتطور وصالحاً للعمل في الجزيرة، لم تتوفر لناصر فرصة العمل في الجزيرة، عاد إلى الكويت وعمل في قناة تليفزيونية مبتدئة، وكان سؤال الجابر عنه لا يتوقف، عاد بعد فترة للتدرب مرة أخرى في قسم التصوير، وألح الجابر عليّ بمحاولة تدبير عمل له في القناة، ويتصور المرء أحياناً أن مذيعاً له حضوره في الجزيرة سيجد الطريق سالكاً لتعيين قريب في المحطة يعمل في مجال التصوير، ويمتلك الموهبة والخبرة اللازمة، إضافة إلى تزكية المشرفين عليه في القناة ذاتها، حدثت أمور كثيرة منعت الأمر الذي أرهقني وأزعجني كثيراً، ساعدت عدة أشخاص في العمل هنا، وأجد صعوبة بالغة في مساعدة قريب لي يستحق المساعدة بجدارة، بعد فترة تيسرت فرصة

العمل الجزئي لمدة شهرين، وقد التحق ناصر بالعمل، وانتهى الأمر بعد انقضاء الفترة القصيرة المقررة، سافر ناصر وأوشكت أن أنسى الموضوع تماماً، كان علي الجابر يلح كلما قابلني بشكل غريب، ويسأل باستمرار عن الشاب ويطلب حضوره للمحاولة مرة أخرى، كان يقول: «هذا شاب رائع ومبارك وطيب، ولا بد أن يجد فرصته للعمل في الجزيرة»، وحين ذهبت مرة لمدير شؤون التوظيف في الشبكة أبحث الموضوع، أخبرني أن علي الجابر يتابع هذا الموضوع معه باستمرار وبإلحاح كبير، شعرت بالامتنان للرجل الطيب، ولوفائه الرائع.

في خضم الثورة الليبية وبعد أشهر من آخر مرة التقيت فيها علي، عرفت أنه وفريق صحفي توجهوا لبنغازي، شعرت داخلي بالاستغراب، لماذا يذهب رجل في مثل سن علي وخبرته وموقعه الوظيفي ومسؤولياته العائلية إلى هذا المكان الخطر، مرت أيام وكنت على جدول أخبار الفترة المسائية، وكان يزور الجزيرة أصدقاء من السعودية أخذتهم إلى الكافتريا لتناول القهوة، وإذ بأحدهم يطلب مني النزول على وجه السرعة إلى غرفة الأخبار. مكتب محمد داود مدير التخطيط الإخباري مكتظ، المدير العام ومجموعة كبيرة من الصحفيين في حالة تثير الريبة، يكسو الحزن والأسى الجميع، أخبرني منتج النشرة باستشهاد علي حسن الجابر وضرورة قراءتي للخبر في موجز العاشرة غير المقرر لي، كنت والزميلة فيروز زياني في تلك الفترة الإخبارية، وقد رأى الزملاء قيامي بالمهمة نظراً لكون الزميلة فيروز امرأة، وقد تتأثر كثيراً بتقديم هذا الخبر المأساوي، لم تجد ممانعتي صدى لديهم،

شعرت بالدوار والصدمة الكبيرة، لم يعرف الزملاء أنني في هذه اللحظة بالذات سأكون أضعف من أي إنسان آخر في هذا الكون.

قرأت الخبر بأكبر قدرة على التماسك تمتعت بها، ولم يمنع هذا نبرة الحزن وصوت الدموع، أردت أن أصرخ أمام العالم أن الذي استشهد أمامكم واحد من أنبل البشر، أردت أن أصيح بأعلى صوت وأنادي عليه، ربما لم يمت، ربما حدث خطأ ما، ربما، خرجت من الاستديو بعد قراءة الخبر وإجراء مقابلة مع وضاح خنفر مدير الشبكة، في الممر الذي يؤدي إلى خارج القناة بكيت بكاءً مريراً، وفي نشرة الحصاد كان جثمان علي الجابر قد وصل مدينة بنغازي، صلى الثوار عليه أمام ملايين العرب، كان العرب كلهم يصلون على الجابر، وارتفعت الأعلام والأكف بالدعاء، وفي لحظة التعليق المباشر، فيروز وأنا وبيبه ولد أمهادي المراسل الذي كان برفقة علي في السيارة لحظة إطلاق النار عليهم، رفع بيبة نظارة علي وكاميرته، وضعت رأسي على طاولة الأخبار، غبت في نوبة بكاء هستيرية لم يسبق أن تعرضت لها بهذا الشكل، عدت بعد انتهاء العمل إلى البيت منهكاً من الحزن، لم أنم حتى العاشرة صباحاً، وقبل أن أنام، وصلتني رسالة هاتفية من الشؤون الإدارية تطلب حضور ناصر.

مات علي الجابر، وحلَّ ناصر مكانه، لم يكن بين الأمرين ارتباط سوى الصدفة المحضة والقاتلة، وكان قرار تعيين الشاب الذي أحبه ودربه وسعى من أجله علي، قد صدر في اليوم الذي استشهد فيه، وكأن صوتا من بنغازي كان يقول: لن أرحل إلا بعد إنهاء هذه المهمة يا بنيّ!.

اليمن .. ثورة عاشقَيْن

من مشفاه يتعافى ، ويرسل الموت لأصحاب الصدور العارية ..

يأبى زمن الميليشيات والبلاطجة، الذي يحظى بأجود أنواع الرعاية الإقليمية والدولية، وأفخم أنواع الصمت العربي..

يأبى أن يتجاوز الثوار ساحة الحرية، ثمة من أوهم الديكتاتور بأن الثورة تفنى، وأن الثوار يموتون!

لكن الأغاني القادمة من قلب صنعاء وتعز وعدن وإب، لا تشي برائحة اليأس، إيقاع الحسم الثوري يرتفع شيئا فشيئا..

لم ينفذ الرصاص والخذلان العربي والمبادرة الخليجية إلى قلب اليمني الثائر ..

لم تستطع قذائف الـ آر بي جي ، والرغبات السامية ببقاء جزيرة العرب نقية من الدنس الثوري ، والدعايات المقيتة حول جهل اليمن وتخلفه واقتتال قبائله ، لم تنجح مجتمعة في إيقاف سيل الحريات الجارف في شوارع البلاد

وكان أن قدم الشعب الجريح قرابينه ، ستة وعشرون يمنيا سالت دماؤهم البارحة فقط ، وحين اصطفوا أمام نيران القناصة ، لم يرد في ذهنهم انتفاضة الجوار الخليجي الشقيق المتخم بالنفط ، ولا بيان عربي لجامعة معاقة ، ولا موقف فرنسي أو أمريكي نفعي لا أخلاقي ، ولم يرد في ذهنهم رجب طيب أردوغان الخليفة المنتظر ، الذي تشتم بوصلة بلاده رائحة النفط والمصالح جيدا ، إذ لا شيء من هذا في أرض اليمن السعيد ، السعيد بأنبل وأرقى ثورة مدنية سلمية في التاريخ ، وغير السعيد بمن شاركوا في قتل مواطنيه ، عبر التجاهل والتواطؤ على مسعى أهله الحثيث نحو الكرامة والحرية والديمقراطية ..

أيها السادة ، يقول اليمنيون : إنّا باقون هنا ، ما بقي في قلب كل يمني ويمنية ذرة من أمل ..

في العمق ـ سبتمبر/أيلول ٢٠١١

قبل عامين كتبت رسالة لاذعة وجهتها إلى الرئيس اليمني علي عبدالله صالح، وتلقيت على إثرها أكثر من ألفي رسالة عبر البريد الإلكتروني، ومئات التعليقات على المقال في موقع جريدة العرب القطرية، وفي عشرات المواقع اليمنية التي تداولت المقال بشكل كبير، ما جرى كان لافتا جدا بالنسبة لي، وقد أوجد علاقة من نوع خاص مع اليمن وأهله وقضاياه، وربما من المناسب التذكير بالمحددات الرئيسية لجملة مواقفنا من هذه البلاد وأهلها، والحديث هنا عن مواقف شريحة شعبية كبيرة في دول مجلس التعاون الخليجي تستشعر الظلم الذي يتعرض له اليمن من قبل الدول الخليجية، بدءا بتعطيل انضمامه بشكل كامل

لمنظومة المجلس، والتعامل الفوقي مع مواطنيه فيما يتعلق بفرص العمل والتأشيرات اللازمة لدخولهم البلدان الخليجية، إضافة للدعم الكبير الذي يتلقاه النظام اليمني من قبل الأنظمة الخليجية وعلى رأسها السعودية، ما يزيد من قدرته على الممارسات غير الديمقراطية ويعينه على الفساد والاستئثار بالسلطة والثروة والتهيئة لملكية جمهورية عبر تحضير الابن (أحمد) للرئاسة بعد أبيه، الأمر الذي لا يعود بالفائدة الحقيقية علينا في السعودية ودول الخليج، لأن شيئا لم يتغير في البلد نتيجة هذا التمويل للنظام ومشائخ القبائل، والسواد الأعظم من الشعب اليمني ينظرون لهذه الأدوار والمواقف بسلبية كبيرة جدا.

اندلعت الثورة في اليمن وكانت صادمة لكل الذين عششت الأوهام في رؤوسهم عن اليمن وطبيعته، سقطت كل المحاولات التي تطرح المخاوف من الاقتتال الأهلي بحجة التركيبة القبلية للبلاد وتعقيداتها، تغير كل شيء فجأة، أو لنقل ظهرت صورة الشعب اليمني على حقيقته، ناصعة بيضاء نقية بشكل استثنائي، المظاهرات السلمية عمت البلاد، والنساء اليمنيات حضرن بشكل لافت وغير مسبوق عربيا في مثل هذه الاحتجاجات الشعبية، حتى القبائل ورجالاتها وشيوخها لعبوا دورا بارزا في خلق هذه الصورة الجميلة عن الثورة اليمنية بمواقفهم الداعمة والمؤيدة لها، انتفضت المدن الكبرى والرئيسية ولحقتها المدن البعيدة والصغيرة، كان كل شيء كما يجب أن يكون، حضرت الجزيرة في المشهد اليمني واستطاعت نقل مشاهده العظيمة للعالم بأسره، أغلق النظام مكاتب الجزيرة وواجهنا في التغطية صعوبات جمة، لكن سعيد ثابت وأحمد الشلفي وكل أعضاء المكتب عملوا بشكل

استثنائي على الاستمرار بالتغطية، انحازت الصحافة للثورة الشعبية المدنية من منطلقات إنسانية بحتة، أجمل الأهازيج والصور كانت في ساحات صنعاء وتعز وعدن، وجدنا في اليمن ما لم نجده في غيرها، وأعني هنا نحن العرب المتلهفون للتغيير والثورة السلمية على كل مظاهر الظلم والاستبداد، لكن هذا لا يكفي وحده، انتابني شعور أن الاهتمام الذي حظيت به الثورة اليمنية أقل مما يجب، وليس كما هو الحال في الثورات الأخرى، مصر احتلت كل المساحة بسبب أهميتها وقصر المدة التي استغرقتها في التخلص من رئيس النظام، وكذلك تونس، في ليبيا تدخل الناتو بعد تفويض عربي واسع جعل من البلاد محط اهتمام دولي، في سوريا والبحرين وبسبب النزعة الطائفية التي أحاطت بكليهما كان معظم النقاش والاهتمام الشعبي ينصب هناك، وباتت اليمن وحيدة ورهن المبادرة الخليجية التي أعطت صالح كل شيء.

كتبت المقدمة التي بدأت بها هذا الجزء في حلقة خصصتها للثورة اليمنية، ولأنها كانت من القلب فقد جاءت قاسية على الجميع، سجلت فيها إدانتي لكل المواقف القريبة والبعيدة، وحملت إشارة واضحة على استهجان ما يقوم به صالح من قتل بينما يتلقى العلاج في بلادي، ولأن كيمياء خاصة نشأت بيني وبين اليمن في السنوات الأخيرة تفاعل الأمر بشكل غريب، لم تكن اللغة وحدها من فعل ذلك، ولا العاطفة أيضا، ولا حتى الجرأة الكبيرة في الانحياز الكامل والصارخ لهذه الثورة، حالة من التوحد لم أعهدها في حياتي من قبل واكبت هذه العلاقة بين صحفي وشعب بأكمله، استقبل اليمنيون هذه الكلمات المتواضعة

باحتفاء كبير، لم يتوقف هاتفي تلك الليلة، سعيد ثابت ينقل لي ما تلقاه من كلمات وثناء وقبول شعبي واسع، الشلفي يكتب عن ذلك الأمر في صفحته في موقع تويتر، اتصالات من مثقفين يمنين في الداخل والخارج، وسيل من التعليقات عبر الشبكات الاجتماعية، تداول الثوار المقطع في الساحة كما نقل لي بعد أن تم ربطه بأغان وطنية عن الثورة، وأشياء كثيرة جعلتني ممتنا لهذا التقدير الاستثنائي والمبالغ فيه.

كتبت لاحقا: والله ما آمنت بثورة، ولا أحببت شعبا، ولا أُعجبت بنضال، ولا بكيت من أجل دم، ولا أجبرت أطفالي على هتاف، إلا من أجلك أيتها الطاهرة، من أجلكَ يا يمن الحب والنقاء والأخلاق والأدب والعفة والطهارة واللسان الجميل واللغة والاتزان والصدق والرجولة في الخصومة، هناك تكمن الثورة الحقيقية، وليس في السموم الطائفية التي بدأت تهب على المنطقة.

وأنا أعني تماما ما كتبت.

قطر

في خضم الثورات العربية وما قبلها بسنوات، كان هناك سؤال يتكرر حول دولة قطر، ولا أظن دارساً للسياسة في المنطقة العربية يمكن له إتمام بحث ما عن طبيعة التغييرات التي شهدتها دون التعريج مطولاً على قطر ونشاطها السياسي، منذ تولى الأمير الحالي الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني الحكم في البلاد عام ١٩٩٥م، وكل شيء يتغير في شبه الجزيرة الصغيرة، وعبارة كل شيء هنا تعني تماماً كل شيء، من الشؤون الداخلية والسياسة الخارجية وطبيعة العلاقات والأدوار التي تقوم بها الدولة، ولست معنياً بنقد السياسات القطرية والنقاش في مضامينها بقدر عنايتي في قراءة طبيعة العلاقة بين قطر كدولة والجزيرة كقناة إخبارية لعبت دوراً كبيراً في التغييرات الجذرية التي طالت المنطقة العربية في العقدين الأخيرين، خاصة أن القناة المثيرة للجدل أمضت مؤخراً عامها الخامس عشر، وما زالت تتصدر المشهد الإعلامي وتستحوذ على النصيب الأكبر من المشاهدة والاهتمام.

لا بد أولاً من تحديد بعض الأمور الأساسية واللازمة لفهم ما نتحدث عنه، إن القيادة القطرية قامت بمحض إرادتها

ودون إجبار أو ضغط من أحد بإنشاء قناة الجزيرة وتمويلها ورعايتها بشكل كامل، لم تنشأ القناة عن حاجة أو تصويت من الشعوب العربية أو ضغط خارجي حتى تخضع لمحاسبة أحد، لكنها تُحاسب بما ترفعه من شعارات أرادت منها أن تكون ضابطة وحاكمة لطبيعة عملها، وهذا ما قام به رعاة إطلاقها، بمعنى أن القطريين اختاروا من تلقاء أنفسهم القيام بهذه المخاطرة الإعلامية الكبيرة، واختاروا لها أيضاً أن تحظى بأعلى سقف ممكن من الحرية في النقاش وتناول الأخبار، وأعلى سقف لا يعني أن يكون السقف مفتوحاً ودون حدود، فثمة حدود سياسية وأمنية ودينية وثقافية واجتماعية تحكم عمل المؤسسات الإعلامية، والسقف المرتفع مسألة نسبية تقاس بالهامش الذي يتاح لغيرها من المؤسسات الصحفية في المنطقة، ولا يكون القياس على إطلاقه، فما يمثل فسحة من الحرية في مكان ما قد لا يكون على هذا النحو في مكان آخر، ومن هذا فإن محاكمة القناة وملاكها لا بد أن تراعي مبدأ الاختيارية في الموضوع، وأن الالتزام نابعٌ من الذات لا من خارجها، وهناك أمر آخر يتعلق بالقدرة التي يتمتع بها المالك في هذه الحالة لحماية العمل الصحفي في القناة، فنحن حين نشكك بمدى الفائدة المحققة من عمل القناة كعائد سياسي أو خلافه، علينا أن نفكر أيضاً بالثمن الذي يدفعه المالك في مقابل حماية العمل الصحفي والكلفة المالية والسياسية التي تنتج عن قيامه بهذه المهمة، فإن كان هناك عوائد ما علينا أيضاً أن نتذكر التبعات حتى نكون منصفين في عملية التقييم، ولمزيد من التوضيح في هذه المسألة نتذكر المقاطعة السياسية وسحب السفراء والضرر الذي تعرضت له المصالح القطرية بسبب أداء الجزيرة في

أماكن مختلفة، والخلافات الكثيرة والكبيرة التي تعرضت لها العلاقات القطرية العربية والقطرية الدولية خير شاهد على هذا الأمر. مقاطعة تونس السياسية في زمن بن علي وشبه المقاطعة الرسمية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية والتهديدات التي تلقتها قطر في هذا الخصوص لا تحصى، كما أن المصالح التجارية والاستثمارية تضررت بشكل كبير في فترات كثيرة نتيجة الربط بين السياسة القطرية وأداء القناة الإعلامي، إضافة إلى كون الدولة تتحمل وحدها الكلفة المالية لتمويل القناة نتيجة الحصار الإعلاني الذي واجهته القناة بسبب مهنيتها الكبيرة، ومن هذا علينا أن نقر بالضريبة الكبيرة التي دفعتها دولة قطر بسبب قيام الجزيرة بعملها الصحفي.

تحدثنا عن الثمن والضريبة والأعباء التي ترتبت على إنشاء الجزيرة وتمويلها، فماذا عن الفوائد التي تحققت لقطر نتيجة وجود الجزيرة؟ هل يعقل أن تكون الجزيرة عملاً خيريًّا محضاً أو مجرد إيمان خالص بحرية الإعلام وأهميته؟ يتحدث المسؤولون والمثقفون والمواطنون القطريون دائماً عن الأثر الإيجابي العائد من وجود الجزيرة، وإن بدأ معك المتحدث بالإشارة للصداع الكبير وأحياناً المضايقات التي يتعرض لها خارج الدولة لكونه قطريًّا فقط، والربط العام بين قطر والقطريين والجزيرة، فإنه يتبع ذلك بإشارة فخورة للصورة الإيجابية التي ارتسمت عن قطر في الخارج نتيجة هذا الربط، وكما يتلقى الناس التعليقات السلبية فإنهم يحظون بالإعجاب والتقدير نتيجة وجود القناة ورعايتها ومجرد التفكير بإطلاقها، وقد كانت قطر دولة خليجية صغيرة هادئة ومحافظة سياسيًّا إلى حد كبير، لكنها بعد التغيير وإطلاق الجزيرة أصبحت مثار

اهتمام كبار السياسيين والاقتصاديين في المنطقة والعالم، بدأ الناس بالتعرف على قطر وجغرافيتها ونشاطها واهتماماتها ومشاريعها من خلال الاهتمام الذي أثارته الجزيرة أول الأمر، ولم يكن هذا ليتحقق بفضل الجزيرة فقط، حتى إن لعبت دوراً كبيراً في حدوثه، ما صاحب الجزيرة من نشاط سياسي بارز ومثير، وما لحقها من حركة تنموية هائلة على صعيد البنية التحتية واهتمام لافت بعقد المؤتمرات بكافة أنواعها ومواضيعها، لولا هذا الانفجار السياسي والاقتصادي والتنموي المرافق لإطلاق الجزيرة لما تحقق كل هذا، ولتوقفت الأمور عند العبارة الشهيرة التي أطلقت في سنوات الجزيرة الأولى، نحن نعرف الجزيرة ولا نعرف قطر، ما جرى طوال السنوات التي تلت إطلاق الجزيرة أشبه بسباق بين الجزيرة وقطر. الجزيرة احتلت موقعها البارز في ظرف سنوات بحكم سهولة الانتشار الإعلامي، وظلت قطر تسير بمشروعها المثير جنباً إلى جنب مع الصخب الذي تثيره الجزيرة، تستفيد منه في كسب الأضواء الكاشفة على مشروعها الذي وجد مساحة مستحقة فيما تقدمه الجزيرة من نتاج إعلامي.

هل هذا كل شيء؟ قطعاً لا، وإلا سيكون الأمر استغفالاً للقارئ وقراءة غير موضوعية للأمر، السؤال الأهم في العلاقة بين الجزيرة وقطر يكون على النحو التالي: ما القدر الذي تتدخل فيه السياسات القطرية في سياسات التحرير المعتمدة في قناة الجزيرة؟ متى وكيف يؤثر القرار السياسي القطري على القرار التحريري؟ ما مدى استقلالية القناة عن السياسات القطرية؟ وكيف تتعامل مع الأمور التي تخص دولة قطر؟ حين يشهد ملف أو قضية ما صراعاً سياسيًّا بين قطر ودولة

أخرى، كيف يكون تعامل الجزيرة في هذا الخصوص؟ إذا كانت قطر تملك حق تعيين مجلس الإدارة الذي يعين بدوره هيئة التحرير، كيف يمكن القول إن ذلك لا يثير مسألة المراعاة وتحقيق المصالح السياسية والاقتصادية لدولة قطر عبر قناة الجزيرة؟ أسئلة كثيرة يمكن أن نطرحها في محاولة فهم التأثير بين ما يسمى علاقات الملكية وسياسات التحرير في حالة الجزيرة وقطر.

قد لا يكون الكاتب هو الشخص المناسب للحديث عن هذه القضية المهمة، بحكم عمله المستمر في قناة الجزيرة حتى لحظة الكتابة على الأقل، ولكن محاولة قراءة الموضوع وتقديم رأي فيه مسألة واجبة، وكما قد يشكل عمل المؤلف في الجزيرة نقطة شك في مسألة الحيادية والوقوع في فخ المجاملات، فإن هذه المعرفة الجيدة والتواجد في داخل القناة محل النقاش يشكل إضافة إيجابية في القراءة الواقعية لهذه المسألة الشائكة، والتي يتطرق إليها كل من يتعرض لعمل القناة وسياستها بالنقد، القراءة - بعيداً عن الأوهام وأكاذيب الغرف المظلمة - والاعتقاد السائد في الأنظمة الاستبدادية أن الإعلام مجرد أداة طيعة بيد السياسي، مع ملاحظة مهمة في أن العمل الصحفي في الجزيرة ليس باباً للاسترزاق فقط، فالجزيرة مصدر رزق للصحفي العامل فيها دون أدنى شك، لكنها ليست المصدر الوحيد في هذا العالم، يستطيع الصحفيون المحترفون في عالم الأخبار أن يجدوا ألف فرصة وظيفية أخرى في أماكن كثيرة، وبعائد مادي ومعنوي أفضل في بعض الأحيان، وأقل صداعاً وخطراً وعداءً من العمل في الجزيرة؛ ما يدفعنا للتركيز على جانب مهم ورئيس

يرتبط بالقناعة، والإيمان بالرسالة الإعلامية التي تقوم عليها قناة الجزيرة، وهذا معروف وشائع في الأوساط الإعلامية كلها ولا حاجة إلى التفصيل فيه.

نعود للعلاقة المراد بحثها بين الجزيرة والسياسات القطرية، الأمثلة خير وسيلة لشرح المسألة وتبسيطها، ونبدأ هنا بمثالين واضحين يمكن القياس عليهما: كانت قطر في مطلع التسعينيات قد أقامت علاقات تطبيعية مع إسرائيل بافتتاح مكتب تجاري متبادل بينهما، وكان ذلك وما زال أمرا مستهجنا ومرفوضا من قبل الكثيرين ومنهم الكاتب الذي لا يرى في ذلك عملا صحيحا يستقيم مع التوجهات العروبية التي ترفض هذا الكيان الصهيوني الاستيطاني ولا تقبل التعامل معه تحت أي ظرف، وقد جاء الموقف القطري متسقا مع حفلة التطبيع العربية التي راجت في المنطقة بعد مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو للسلام، مستثمراً حجة قبول الفلسطينيين أنفسهم بالسلام، إضافة لسبب خاص آخر كان يدفع في ظني باتجاه هذه العلاقات لما قامت الدول العربية الرئيسة بالضغط على النظام السياسي في قطر، وكان كل علاقة مع الأمريكيين تمر عبر هذه الدول أو إسرائيل؛ ما دفع دولة كقطر إلى الإقدام على هذه الخطوة، ومع ذلك كانت الجزيرة منذ نشأتها تمثل الخط العدائي لإسرائيل ومشروعها وملاحقها السياسية في المنطقة وأولهم نظام حسني مبارك. لم تؤثر هذه العلاقة الاضطرارية في تقديري على سياسات التحرير بتمرير إسرائيل وتسهيل قبولها لدى المتلقي العربي، ويقطع المرء بهذا عبر عشرات التغطيات الإخبارية التي قامت بها القناة طوال مسيرتها، أضف لذلك العلاقات الأمريكية القطرية التي

أنتجت وجود قاعدة أمريكية في الدولة الصغيرة، وكون الولايات المتحدة القوة العظمى الرئيسة في العالم ولا يستطيع أحد مهما كان حجمه وقوته الوقوف في وجهها دون أن يتضرر، وقطر كدولة خليجية تسبح ضمن المنظومة الأمنية الأمريكية، ومع ذلك لم تحاول التأثير على سياسات التحرير المتعلقة بالشأن الأمريكي في القناة، وعلينا أن نراجع الأداء المهني والنقدي المبهر والشجاع في حربي أفغانستان والعراق وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتغطيات لا حصر لها جعلت من القناة العدو الأول بشكل جدي للسياسات الأمريكية، بل وصل الأمر إلى تهديد الرئيس جورج بوش الابن بقصفها إن لزم الأمر في حديثه الموثق مع توني بلير رئيس الوزراء البريطاني السابق، وهو وإن لم يكن ينوي ذلك فإنه عبّر بطريقة واضحة عن امتعاضه وغضبه الشديد من سياسات التحرير في قناة الجزيرة في كل القضايا المتعلقة ببلاده في المنطقة، فلماذا لا تقوم الدولة الحليفة بتوجيه قناة الجزيرة نحو سياسات أكثر ليونة في هذه القضايا؟ ونقيس على ذلك المواقف في حروب إسرائيل على لبنان وغزة، والمواقف من الثورات العربية المختلفة، وكل هذه المسافة بين السياسات والرؤية التحريرية تعود لسبب واحد رئيس، يتمثل بالقناعة الراسخة أن أي محاولة للتأثير على السياسات التحريرية وتطويعها سيقضي على مصداقية الجزيرة لدى الجمهور الواعي المدرك والمترصد، وهنا نعود لمبدأ الاختيار في الموضوع، من اختار للقناة أن تكون مستقلة إلى حد كبير، اختار أن يحافظ على هذا المبدأ، ولا أحد يجبره على هذا سوى رغبته ببقاء القناة وحفاظها على مصداقيتها، ولو أراد فعل غير ذلك الأمر لما وقف في وجهه أحد.

في الربيع العربي وضعت العلاقة بين الجزيرة والسياسات القطرية على المحك مرة أخرى، وبشكل أكثر صعوبة من المرات السابقة، وسأروي هنا ما شهدته في الجزيرة أيام اندلاع الثورة السورية في شهر مارس ٢٠١١م، مع أول لحظات الاحتجاج في مدينة درعا السورية ثارت الاستفهامات والتعليقات من الجمهور المحب للجزيرة والمتربص بها على حد سواء، هل ستقوم الجزيرة بتغطية الاحتجاجات السورية؟ هل ستفعل ما فعلته في أماكن أخرى؟ والسؤال ينطلق من متانة العلاقة بين قطر والنظام السوري طوال العقد الماضي، فالعلاقة بين البلدين كانت وثيقة جدًّا، والتحالف بينهما ترسخ بشكل كبير في جبهة سياسية تضم أطرافاً أخرى في المنطقة، ومن الصعب القيام بانعطافة كبيرة ومفاجئة في هذه العلاقة كما نفهم السياسة، انهالت حملة التشكيك الكبيرة بالموقف المحتمل لقناة الجزيرة نتيجة ما سبق شرحه من طبيعة العلاقة بين قطر وسوريا، وللأمانة دخل نفسي الشك أول الأمر، وارتبت من الموضوع كثيراً، ماذا لو قررت القناة تجاهل هذا الحدث في سوريا، مضت الأيام الأولى للاحتجاجات المحدودة جدًّا، وزادت المطالبات والضغوط والتشكيك عبر الشبكات الاجتماعية وفي الأوساط التي تدعم هذه الانتفاضة المحتملة في سوريا، بعد أيام ولأسباب مرتبطة بالعمل زرت رئيس مجلس الإدارة الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني، وبعد أن تحدثنا في موضوع اللقاء نقلت له جانباً من تلك المشاعر الشعبية الغاضبة والمتخوفة في آن من موضوع الاحتجاجات في سوريا ومتابعتها، وكان الرجل يعرف كل ما يدور ويقال عن الجزيرة كما يعرف الجميع، واستغرب تخوفي رغم معرفتي الجيدة والتامة بالجزيرة وطبيعتها، هل يمكن أن تتجاهل حدثاً كبيراً

كهذا؟! هل يمكن للجزيرة التي بنت مصداقيتها طوال السنوات الماضية أن تضحي بكل شيء بهذه الطريقة؟! نحن نتابع الحدث خبريًّا الآن كما يستحق، وتتطور المتابعة بتطور الحدث وتوسع جغرافيته، ولا يجب علينا أن نقود الانتفاضة بالتحريض على التظاهر والخروج، لكننا لن نسمح لأنفسنا أبداً بتجاهل ما يجري في بلد مهما كانت الظروف.

وما قيل تحقق بالفعل بعد تصاعد مجريات الأحداث في سوريا تدريجيًّا، وبدأ المشككون بتحية الجزيرة بعد أن كانت محل اتهامهم في الأيام الأولى، والتشكيك منبعه التخوف والمحبة والإيمان برسالة الجزيرة وأهميتها في كثير من الأحيان، لكنه أحياناً موقف دائم وثابت لدى البعض لا يتزحزح، يبحث في كل حالة جديدة عما يمكن أن يعزز هذه الشكوك والاتهامات غير الصحيحة، وهو الأمر الذي يدركه المرء بعد جولات نقاشية طويلة تمكنه من معرفة خلفية هذه المواقف وحقيقتها.

وإن كانت الرغبة ساعدت على إيجاد مسافة كافية تحمي للجزيرة خصوصيتها، فإن أمراً آخر ومهمًّا لعب دوراً كبيراً في عدم تداخل السياسات مع شؤون التحرير، يتمثل بجملة السياسات التي تتبناها دولة قطر في معظم القضايا العربية، وهذا ليس دفاعاً عن تلك السياسات بقدر ما هو توصيف لها، ونعود هنا للسياسات المتعلقة بالقضية الفلسطينية والحركات المقاومة والموقف من النفوذ الأمريكي، ونظم الاستبداد في عالمنا العربي إضافة للموقف من الحروب الأمريكية والإسرائيلية، وأخيراً الموقف المشرف من الثورات العربية، ونسأل هنا: ما حجم التقارب بين السياسات والموقف الشعبي العربي؟ فتكون الأمور واضحة وجلية أمامنا.

عزمي بشارة..

شكلت الجزيرة ظاهرة استثنائية في كل شيء تقريباً، في ظهورها ومكانها وسقف حريتها المرتفع، في صحفييها وكفاءتهم من جهة وغرائبهم من جهة أخرى، في الثورة التي أحدثتها في الوعي العربي تجاه القضايا، في التناقضات التي شابتها بعض الأحيان، نتيجة الأوضاع المعقدة والمتناقضة، في قدرتها على الصمود ومواصلة العمل رغم القمع والقتل والتهديد والتحريض المستمر، وفي نجاحها في إحياء المشروع العروبي من جديد في المنطقة عبر توحيدها الهم والقضية والمتابعة واللغة من المحيط إلى الخليج، ومن ذلك أيضاً قدرتها الاستثنائية على إعادة الاعتبار للعلاقة ببين المثقف والمتلقي في بلادنا، وكانت العلاقة بين الاثنين قد شابها الجمود وانخفضت حرارتها إلى درجة متدنية، وبدا أن ما يربط المشاهد العربي بنجوم الطرب والفن والكوميديا والتهريج أكثر حميمية وقوة من غيرها، وفي السنوات التي ظهرت فيها الجزيرة أدمن المشاهد العربي رؤية ومتابعة مجموعات واسعة من المثقفين وأصحاب الرأي الذين يعلقون على قضاياه المختلفة، ويتوزع هؤلاء على مختلف ألوان الطيف السياسي والفكري، وإن كان معظمهم من أصحاب الرؤى القومية والإسلامية على وجه التحديد، ولذلك أسباب عدة، منها الميلُ العام عند أصحاب هذه التوجهات لمناقشة

القضايا الكبرى مقارنة بالتيارات الأخرى، التي انشغل معظمها بالقضايا القُطرية وانسحبوا عن مجمل الشؤون العربية، إضافة إلى وجود غالبية الناشطين من التيارات القومية والإسلامية في خانة المعارضة؛ ما يجعل من طرحها مختلفاً عن الأشكال المكررة والممجوجة في معظم وسائل الإعلام الرسمية؛ الأمر الذي وجدت فيه الجزيرة تعبيراً واضحاً وملامسة أدق للرأي العام العربي وقضاياه الرئيسة، كالقضية الفلسطينية واحتلال العراق وقضايا المقاومة والاستبداد والديمقراطية والنفوذ الغربي في المنطقة.

في الثورات العربية عموماً، وفي الثورة المصرية على وجه الخصوص، كان الدكتور عزمي بشارة نجم الشاشة الأول بلا منازع، وهي المرة الأولى التي يكون فيها أستاذ الفلسفة والمفكر والكاتب والعروبي والديمقراطي محط المتابعة من قبل الجميع بلا استثناء، لم تعد النخبة تخاطب النخبة كما جرت العادة، يجلس المثقف والمهني والعسكري والطالب وربة المنزل والمراهق والمتقاعد متسمراً أمام الشاشة كل مساء ينتظر ما سيقوله عزمي بشارة، كيف يحلل الأحداث اليومية في الثورة المصرية، وماذا يتوقع؟ ينتظره الثوار والصحفيون والأكاديميون والسياسيون وأعداء الثورة على حد سواء، الساعة التي يظهر فيها بشارة تشبهه إلى حد كبير، أحلامه الكبيرة، أجنداته العروبية والديمقراطية، نضاله الطويل، تشبه فلسطين التي لم يستطع الاحتلال انتزاعها منه، ولا المنفى.

في الثاني والعشرين من شهر يوليو/تموز عام ١٩٥٦م، ولد عزمي بشارة في الناصرة ونشأ فيها، وفي هذه المدينة التي تقع في قلب الجليل الأدنى من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، نشأ المسيح عليه السلام، أسس بشارة في سنة ١٩٧٤م، اللجنة

القُطرية للثانويين العرب، وكان أول رئيس لها، ثم شارك في تأسيس الحركة الطلابية العربية في الجامعات الإسرائيلية، ثم اتحاد الطلاب الجامعيين العرب. نشط في الحركة الطلابية العربية واعتبر أحد رموزها البارزين في السبعينيات. تخرج من الجامعة العبرية في القدس وسافر إلى ألمانيا بعد ذلك؛ ليحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة هومبولدت في مدينة برلين، عاد ليدرّس الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت طيلة عشر سنوات حتى العام ١٩٩٥م، حين أسس التجمع الوطني الديمقراطي، وانتخب بعد ذلك نائبا في الكنيست على رأس قائمة التجمع وأعيد انتخابه مرة أخرى ١٩٩٩، و٢٠٠٢، و٢٠٠٦م، أي قبل أن يغادر إلى المنفى عام ٢٠٠٧م، ملاحقاً من قبل الأمن والقضاء الإسرائيليين بتهمة الاتصال مع العدو في زمن الحرب ودعم المقاومة اللبنانية والفلسطينية.

وقلما يجد المرء شخصية نهضوية مثقفة مثل شخصية عزمي بشارة، ينشط في قضيته الفلسطينية كما ينبغي، ويمارس التدريس والسياسة في آن واحد، يجد الوقت للكتابة مجدداً ومبشراً في مجالات الدين والديمقراطية والعروبة والمجتمع المدني، يفعل كل ذلك في وقت واحد وكما يجب، من مؤلفاته «المجتمع المدني دراسة نقدية» والخطاب السياسي المبتور، الأقلية العربية في إسرائيل ـ رؤيا من الداخل، لئلا يفقد المعنى، وفي العبرية كتابان هما التنوير مشروع لم يكتمل بعد، والهوية وصناعة الهوية في المجتمع الإسرائيلي، طروحات عن النهضة المعاقة، من يهودية الدولة حتى شارون، دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية، في المسألة العربية ـ مقدمة لبيان ديمقراطي عربي، أن تكون عربيًا في أيامنا، وفي الشعر والرواية الحاجز وحب في منطقة الظل، وديوان نشيد

الإنشاد الذي لنا، ومؤخراً صدر له دراستان في كتيبين في المسألة القبطية وفي الثورة والقابلية للثورة. كما أشرف على تحرير سلسلة تدريس حول الديمقراطية مؤلفة من أربعة عشر كتيب وكراس باللغة العربية تستخدم للتدريس في المدارس والجامعات، ويرتكز نشاطه الفكري حول العلاقة بين القومية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ومحاولة المزاوجة بينها في فكر يمثل تياراً ديمقراطيًا للمجتمع العربي، ويقوم مشروعه السياسي على مبدأ ومفهوم دولة المواطنين وإحياء الفكر القومي العربي ومحاولة دمقرطته والمزج بينه وبين الليبرالية الحقوقية والعدالة الاجتماعية. وقد أحدث ترشحه لرئاسة وزراء إسرائيل صدمة كبيرة لدى التيارات الصهيونية، وكانت تلك الخطوة تكتيكاً سياسيًا لإحراج إسرائيل وإظهار عنصريتها المقيتة واضطهادها الكبير للعرب، ولجر العرب إلى عدم التصويت لمرشحي الأحزاب الصهيونية. وكان هذا الأمر ضمن نشاط فكري وسياسي لتعرية وهم الديمقراطية الإسرائيلية وإظهار الوجه القبيح جدًا لهذا المشروع الاستيطاني.

قدمت في أول عام لي في الجزيرة برنامجاً سنويًا تنظمه القناة في نهاية كل عام ميلادي، وهو عبارة عن ندوة مفتوحة ومباشرة لعدة ساعات مع مجموعة من أبرز المثقفين العرب، يكون الحديث في أبرز القضايا العربية التي عاشتها الأمة خلال العام المنصرم، والآمال المعقودة على بوابة العام الجديد. وفي العام التالي أوكلت لي المهمة مرة أخرى، ومن ضيوف الندوة هذا العام (٢٠٠٥م) كان الدكتور عزمي بشارة، وهي المرة الأولى التي أقابله فيها شخصيًا كما في برنامج حواري، وبشارة رجل مهيب الطلعة، يكتسي وجهه بالسمرة والمرارة معاً، يبدو متجهماً غاضباً في الغالب، ويتمتع بكاريزما قلما تجد نظيراً لها، تقترب ملامحه من ملامح سكان

الجزيرة العربية، كنا قبل ذلك نشاهد عزمي بشارة في التليفزيون، ونقرأ له في الصحف ما يكتبه من مقالات، إضافة إلى كتبه التي شكلت ثورة كبيرة في مسألة الهوية العربية وتجديد الفكر القومي، وهو يتحدث كما يكتب، لغة رائعة ومتماسكة ومؤثرة بشكل لافت، التبست علي صورة بشارة في أول الأمر، وأعني المرحلة التي كان فيها نائباً في الكنيست الإسرائيلي، وأظنها التبست على عدد لا بأس من الذين تابعوا نشاطه السياسي والفكري في تلك الفترة، لكن بعد ذلك تبين لنا ـ ومتابعتنا كانت محدودة جداً ـ قدر الصلابة والقوة والوعي الذي يميز فكر هذا الرجل.

طوال الحوار التليفزيوني الأول كان يبدو عليه الملل، وقد أزعجني هذا الأمر كثيراً، تخيلت أن رجلاً بهذا القدر من الوعي والفكر والنضال السياسي ينظر لهذا اللقاء باستسخاف، ولحساسيتي المفرطة تخيلته يلوم نفسه على المشاركة في حوار يديره مذيع تليفزيوني سطحي كما جرت العادة، فرغم اجتهادي الصحفي إلا أنني أدرك ذلك البون الشاسع الذي يفصل بين المفكر والصحفي مهما كانت قدراته، انتهت الحلقة وتبادلنا السلام وغاب بشارة بعد ذلك طويلاً. قابلته بعد عامين تقريباً من لقائنا الأول، وحاورته أكثر من مرة في مناسبات مختلفة، وما زال انطباعي عن امتعاضه قائماً، فوجئت بعد فترة بمن ينقل ثناء الدكتور ومديحه، وأعترف أن هذا الأمر أسعدني كثيراً، يفرح المقدم التليفزيوني بتقدير الناس وإطرائهم وقبولهم لعمله، فكل ما يقوم به موجه للناس وقائم على هذا القبول، فما بالك إن أتى هذا الأمر ممن تحترم علمه وفكره وموقفه.

في الثاني والعشرين من إبريل/نيسان ٢٠٠٧م، قدم عزمي بشارة استقالته من الكنيست بعد محاولات استهدافه من قبل

إسرائيل، وكان ذلك على خلفية مواقفه من المقاومة اللبنانية وجملة مواقفه من الدولة الصهيونية التي بدأت تشعر بالأذى الكبير من الرجل، ساهم هذا الوضع الجديد بتفرغ بشارة وقدرته على الحديث والمشاركة في نشاطات كثيرة، وكان يتنقل في تلك الفترة بين الأردن ولبنان وقطر حتى استقر في الأخيرة بشكل شبه دائم إثر دعوتها له، وبحكم قربه وإقامته في الدوحة وتفرغه من العمل السياسي المباشر، أصبح هناك متسع لاستضافته على القناة أكثر من السابق، وكان لي شخصيًا فرصة اللقاء به أكثر من مرة في مناسبات مختلفة، وفي كل لقاء تزداد قناعتي بفكر عزمي بشارة وقدراته التحليلية المتميزة للأحداث وربطها بالسياق العام، كان ينطلق من الجزئي إلى العام ومن العام إلى التفاصيل الصغيرة التي لا ننتبه لها، كان الرجل محل إعجاب وتقدير الجميع بشكل استثنائي، المثقف العروبي الديمقراطي يتحدث بعقلانية وإنصاف عن الجميع وعلى رأسهم الإسلاميون بتياراتهم المختلفة، ليس إيديولوجياً منفراً كعادة أصحاب الإيديولوجيا، فكره الديمقراطي القائم على دولة المواطنة التي يتساوى فيها الناس بأعراقهم وأديانهم ومذاهبهم ومناطقهم تبدو مخرجاً لكثير من الأزمات التي نعيشها في البلدان العربية، وانشغاله بالهوية العربية الجامعة وأبعادها الثقافية والحضارية، وما يمكن أن تشكله كرافعة تعاونية بين مختلف الأقطار العربية، جسّد تنظيراً واقعيًا لرابطة العروبة بعيداً عن الطوباوية التي اتسم بها الفكر القومي العربي في العقود الماضية، شرط الديمقراطية وسيادة مبدأ العدالة الاجتماعية أضافا لهذا الطرح عمقاً كبيراً وقدرة على التغلغل في أوساط واسعة من المهتمين استقبلت هذه الرؤى بترحاب كبير، وكنت واحداً من هؤلاء.

قلة من يمتلكون القدرة على الكتابة والتأليف والتنظير من جهة، والحديث أمام الجمهور من جهة أخرى، تمتع الدكتور بشارة بهاتين الصفتين باقتدار واضح، ووجدت الجزيرة في فكر بشارة وموقفه تجسيداً لصورة العربي. إحساسه وحماسه وآلامه وقدرته الفائقة على فهم وتفكيك الصورة المعقدة لهذا الجسد الكبير من المحيط إلى الخليج، وانطلاقه من مركز الأحداث المتمثل بالقضية الفلسطينية ذات الرمزية الطاغية عند كل عربي، توحد الثقافي والإعلامي كما يجب أن يكون، وبات عزمي بشارة ضمن مجموعة من رموز الفكر والثقافة الذين يرون في الجزيرة منبراً للعروبة وقضاياها، وترى فيهم الجزيرة تعبيراً حقيقيًا للعربي المثقل بهموم كثيرة وكبيرة، ولما طرحت الإدارة فكرة برنامج جديد أسندت إليّ عملية تقديمه والإشراف على تحريره، توجهت مباشرة للصديق والمثقف عزمي بشارة، وقد توثقت علاقتنا الشخصية في السنوات الأخيرة التي أمضاها في الدوحة، نذهب إليه ونزوره بشكل دائم مع مجموعة من الأصدقاء، طلبت منه أن يكون ضيفاً شبه دائم على البرنامج، وأن نتناول القضايا الكبرى التي تشغل بال المواطن العربي بشكل ملح، وأن نستفيد منه في رسم صورة لما يجب أن يكون عليه هذا الوطن، قبل مشكوراً واتفقنا على طرح المواضيع الشائكة والبالغة التعقيد، ناقشنا معه طوال سنتين قضايا الديمقراطية والطائفية والأمن القومي العربي، بحثنا في دور الجامعات وأحوال التعليم العالي في البلدان العربية، غصنا معه في أعماق المشروع الاستيطاني الصهيوني وعلاقاته بالولايات المتحدة الأمريكية، يهودية الدولة، فلسطين، النفوذ الإقليمي لإيران وتركيا، احتلال العراق وحال قوى الاحتلال فيه، وقضايا كثيرة كانت تنطلق من فكرة رئيسة مفادها أن ما يعيشه الوطن العربي ليس قدراً نهائيًا وهزيمة حتمية لا مفر

منهما، وأن ثمة ما يمكن القيام به للنهوض بأحوال البلدان العربية لو أرادت، وأن الاستبداد والظلم والنفوذ الأجنبي اللانهائي إنما هو من صنع أيدينا، ويمكن القيام بما يجب القيام به لتغيير هذه الأوضاع، لو توفرت الإرادة الحقيقية في استثمار الطاقات الكامنة والظاهرة لهذه الأمة.

وسائل الإعلام بكافة أشكالها لا تعمل دون بوصلة، والإعلام الصحفي في نظري يملك موقفاً ووجهة نظر في الأحداث التي يتناولها، لكنه يعالجها بموضوعية ومهنية عالية ونزاهة كبيرة، لا يقوم بتزييف الحقائق والأخبار، ولا يخلط الرأي بالخبر دون فصل واضح بينهما، ومن هذا المنطلق اخترنا في «برنامج في العمق» وجهة واضحة لا لبس فيها، أن يكون هذا البرنامج عربياً بامتياز، في هويته واهتمامه وقلقه ومعالجته للقضايا، عربيًا وليس عروبيًا؛ حتى لا يختلط الهمّ بالموقف السياسي والفكري، ومن هذا الباب كان لكل مثقف عربي ملتزم مكانه الدائم في البرنامج، ولأن منطلقات البرنامج تعنى أساساً بالقضية والموضوع وليس بهم النجومية والإثارة، فإن البرنامج لا يستبدل ضيوفه كما يستبدل الناس أزياءهم، فالقناعة راسخة أن ما يقوم عليه الإعلام من أفكار ومواقف يستلزم هوية واضحة ومحددة في الطرح والتناول، وهذا ما كان رهاننا عليه في البرنامج والقناة بشكل عام، الرهان الذي أزهر مع الربيع العربي مؤخراً، وبات ما كان محل استغراب واستهجان من قبل البعض أحياناً، هو العلامة الفارقة لكل شيء أتى لاحقاً، وغدت الأحلام الكبرى التي تناولها بشارة في برنامجنا، واقعاً عربيًا نعيشه اليوم ويؤسس لمستقبل يقطع بشكل واضح ومباشر مع حقبة الاستبداد وضياع الهوية.

خاتمـــــة

يتزامن إصدار هذا الكتاب مع الذكرى السنوية الأولى لثورة ٢٥ يناير/ كانون الثاني المجيدة في مصر، وهذا يشعرني بالفخر والاعتزاز الكبير، ورغم أهمية الثورات العربية جميعها بلا استثناء، السابق منها واللاحق، إلا أن غالبية العرب يرتاحون للكيفية التي تمت بها الثورة المصرية، وما آلت إليه في ظرف زمني قصير وخسائر محدودة، وتلك الصور الخلابة التي أسرت عقول وقلوب المشاهدين العرب طوال ثمانية عشر يوماً، ولم يكن أحد ليتمنى رؤية كل هذا التدمير والقتل وسفك الدماء الذي شهدناه في ثورات أخرى في ليبيا واليمن والبحرين وسوريا، التي تدفع شعوبها حتى هذه اللحظة أثماناً باهظة لمطالبها العادلة بالحرية والكرامة؛ لذا كان للثورة المصرية مكانة خاصة عند الجميع، وهذه الذكرى وما انشغل به الكتاب من عرض للجانب المشرق من الربيع العربي، لا يستوجب إغفال التحديات التي تقف عقبة في طريق التحول الديمقراطي في هذه المنطقة، ما يستلزم إعمال العقل وعقد النقاشات الجدية وإشاعة النقد اللازم في تقييم التجارب وتصحيح مساراتها، وعدم تفويت هذه الفرصة السانحة لمزيد من الإصلاح السياسي والقطيعة مع الماضي البائس.

وأبرز ما يجب التنبه له الدور الذي يقع على عاتق وسائل الإعلام، كون الإعلام الصحفي يمثل اليوم ركيزة أساسية من ركائز الدولة الحديثة، ومرآة عاكسة لحال المجتمع والدولة، وبما يملكه من أدواتٍ للتغيير لا تتوافر لغيره من الوسائل، ولا يتحقق هذا الدور إلا بانحياز الإعلام الصحفي للمواطن والإنسان، والوقوف في وجه السلطة حتى ولو كانت ديمقراطية ومنتخبة؛ بغرض نقدها ومحاسبتها وتصحيح مساراتها، وتمكين الجانب الرقابي في نشاطات وسائل الإعلام المختلفة، لا يكون إلا وفق شروط الموضوعية والمهنية ومراعاة حساسية الظرف الانتقالي.

إن وسائل الإعلام التي تعتمد الكفاءة والتميز في اختيار عامليها، وتحميهم من الاستغلال المادي والفكري والسياسي، يقع على عاتقها عبء النهوض بالمجتمعات. أما الوسائل التي تختصر حياة الفرد وهمومه وتطلعاته بعملية الترفيه اللانهائية، واستنساخ التجارب الغربية بوعي ودون وعي؛ بقصد إلهاء جمهور المتابعين وإقصاء القضايا الجدية والتعتيم عليها، فإنها تتعرض لأكبر التحديات في مسيرتها. الصحوة الكبيرة للمجتمعات العربية أظهرت حجم التواطؤ الكبير بين هذه الوسائل والأنظمة السياسية التي وجدت فيها وسيلة ناجحة لتمرير كثير من الأمور، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، والترفيه أحد الأدوار الثانوية لوسائل الإعلام لكنه ليس البند الأول على الإطلاق، وإنما يتم اعتماده لتسهيل قبول الوسائل وتلقيها من قبل الجمهور. والتحجج بعدم الإثقال على المتلقي والرغبة بالترويح عنه لا يعني تحول الترفيه والتسلية لمشاريع قائمة بذاتها على حساب الجوانب الأخرى، فالإعلام الصحفي

لا يؤمن بالتسفيه ونسخ التجارب ومحاولة تمييع القضايا الكبرى، نؤمن بالترفيه لكن ما نراه في كثير من الأحيان ما هو إلا تسطيح وعهرنة للمجتمع بحجة الانفتاح الاجتماعي، مع الإغفال المتعمد والممنهج للجوانب الأخرى من الانفتاح اللازمة والواجبة.

إن الإعلام في عالم اليوم حق أساسي للفرد المواطن يتساوى مع الحقوق الأخرى، وهذا ما يحتم أن يكون قطاعاً أهليًا عامًا لا يجوز احتكاره من قبل السلطة أو المحسوبين عليها من تجار الأعمال والإعلام، أولئك الذين يحظون بتسهيلات ودعم مادي ومعنوي ولوجستي لا يحظى به غيرهم، فقد بات مكشوفاً ما تقوم به السلطة السياسية من تبني وسائل إعلام بديلة للقيام بأدوار معينة لصالحها، وعلى المجتمعات العربية في كل مكان أن تدرك هذا الأمر وتناقشه باستمرار وتكافحه، وأن تكون حرية الصحافة وعدم احتكار وسائلها أحد المطالب الرئيسة التي تتبناها، وقد شاهدنا ما قامت به وسائل الإعلام الحكومية في دول الثورات تجاه جماهير المحتجين يوم احتدم الصراع بين السلطة والشعوب العربية، وهو أوضح مثال على ما يمكن أن تقدمه هذه الوسائل في وقت الأزمات خلافاً للظروف الاعتيادية، وصورة واضحة على قدرتها اللامحدودة في الكذب والتزوير وتزييف الحقيقة بشكل غير مسبوق.

يستطيع المراقب أن يلحظ وبكل وضوح جملة التغييرات التي طرأت على عمل وسائل الإعلام في بعض الدول العربية، في مصر وليبيا وتونس واليمن؛ وهو ما يدفع للتفاؤل بمرحلة جديدة مغايرة لما كنا عليه في العقود الماضية، لكننا

ندرك تماماً خطورة هذه المرحلة الانتقالية وحجم التربص من قبل أصحاب المصالح والمنتمين للعهد السابق في كل بلد، ولن يجد هؤلاء طريقاً سالكاً لدعواتهم وتأثيرهم وتشكيكهم وحرفهم للمسارات كما سيجدونه في وسائل الإعلام الجديدة، وفي هذا مفارقة يجب الانتباه إليها، تستثمر الحريات ومطالب التعبير لتشويه العهد الجديد والإساءة له، أي أن الأدوات الجديدة تستخدم لترويج الأفكار القديمة والماضي الاستبدادي، ويتطلب هذا انتباهاً ووعياً كبيراً في مواجهة هذه التحديات، والحرية في وسائل الإعلام ليست مطلقة، لا يمكن أن تكون حرية التعبير باباً لضرب حرية التعبير نفسها، ولا يمكن أن يعمل الإعلام دون ثوابت لا يمكن المساس بها، مثل الديمقراطية والحق المطلق والمتساوي لجميع البشر في كل شيء.

الانفتاح الذي تشهده بعض دول المنطقة يزيد من التحديات في وجه المؤسسات الإعلامية الكبرى القائمة، وقناة الجزيرة التي تسيدت المشهد الإعلامي طوال العقدين الماضيين، ستجد نفسها في تنافس محموم مع وسائل الإعلام الجديدة، فهذه الوسائل تمنح الجوانب المحلية مساحة أكبر مما تفعله الجزيرة بحكم طبيعتها وجمهورها الواسع والمختلف؛ ما يدفع المشاهد المصري والليبي واليمني والمغربي للإقبال على القنوات التي تلتفت بشكل أكبر لهمومه وقضاياه المحلية، كما أن حرية التعبير والهامش الكبير من الجرأة الذي تفردت به الجزيرة طوال الفترة الماضية لن يكون حكراً عليها بعد الآن، نحن نشاهد ما يجري من حولنا وندرك الانفتاح الكبير في طرح مجمل القضايا السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والدينية في العالم العربي، وهذا ما يزيد من صعوبة المهمة الملقاة على وسيلة الإعلام الكبرى التي تفردت في الساحة العربية في الفترة الماضية، فهل يكون هذا بداية النهاية لقناة الجزيرة؟!

من يعمل في الجزيرة لسنوات، ويدرك تمام الإدراك إيمان العاملين بها والقائمين عليها برسالة الجزيرة، يستنتج قدرة القناة على مواكبة الأوضاع الجديدة، فما تراكم لديها من خبرات عبر التجارب الكثيرة، يمكنها إن أرادت الاحتفاظ بالموقع الأول، ولا يأتي هذا إلا بعملية التطوير المستمر وملامسة حاجات المشاهد العربي من المحيط إلى الخليج، والاستمرار في اعتماد المهنية والحرفية العالية وسيلة للعمل الصحفي، وعالم التليفزيون متغير ومتطور لا يتوقف عند محطة بعينها؛ الأمر الذي يجعل من الملح اعتماد الوسائل والكفاءات الجديدة وتوظيفها التوظيف السليم، وازدهار الإعلام المحلي لم يكن عائقاً يوماً أمام الجزيرة والمحطات التليفزيونية العالمية التي تمتلك قدرات أكبر، ويغطي عملها مساحات أوسع من تلك التي تهتم ببقعة جغرافية واحدة، لكن هذا لم يحدث يوماً إلا بالتفوق الكبير في الأداء والالتزام برسالة الإعلام، والاحتفاظ دائماً بالمسافة الكافية بين العمل الإعلامي وبين السياسة والمصالح الأخرى.

هذا الكتاب

لا يحدث أن تتنزل حرية الصحافة من السماء على البشر، بل تتحقق للناس بالنضال المستمر والإيمان بدور وأهمية الصحافة كسلطة رابعة في المجتمع، تُراقب الأداء، وتقيّمه، وتنتقده على الدوام من أجل تحسينه وتطويره.

وما كان من حال للصحفي في وسائل الإعلام العربية طوال العقود الماضية، إنما يحتاج إلى مراجعة جادة ورصينة وشفافة.. اتخذ الصحفي لنفسه موقع المُلحق والتابع للسلطة السياسية، أو هكذا وجد نفسه في بعض الأحيان.. يُبرر لها، ويُروج - بوعي أو دون وعي - لمشروعها، ويبني جداراً كبيراً بينه وبين جمهور المتلقين، يُفقده الحساسية والمعرفة اللازمة لهموم المجتمع الذي يعيش فيه.

وقد أسهمت السُلطة بخلق نموذج رديء للصحفي العربي، وأسبغت عليه طابع النموذجية والنجومية حتى يستهدي به الوافدون الجدد إلى هذه المِهنة.. مما راكم على المدى الطويل من حالة التردي والتراجع والتواطؤ في مجموعات الصحفيين الذين يعول على دورهم ونشاطهم.. والثورات العربية تُعيد الاعتبار اليوم لمهنة الصحافة والعاملين فيها، ورأينا كيف توحّد الصحفي مع مُجتمعه وأمّته، يلعبُ أدواراً بالغة التأثير في التغيير الذي نعيشه.

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
بيروت - لبنان

هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١) - ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com


ISBN 978-9953-533-81-0
9 789953 533810